

وصايا للنبي صلى الله عليه وسلم في المائة يوم الأخيرة من حياته الشريفة

تأليف

عبدالعزيز بن عبدالله الحاج

صالح بن عبدالرحمن الحصيّن

الطبعة الأولى 1431 هـ

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصبحه أجمعين، أما بعد:

فقد جمعنا بعد الاستعانة بالله ما نرى أنها وصايا للمصطفى صلى الله عليه وسلم في آخر حياته، أي في المدة المحصورة بالمائة يوم الأخيرة، بدءاً من خروجه صلى الله عليه وسلم من المدينة في حجة الوداع وذلك لخمس بقين من ذي القعدة سنة عشرة من الهجرة إلى وفاته صلى الله عليه وسلم في الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة وقد اتبعنا في تعيين هذه الوصايا المعايير التالية:

1. أن تكون بلفظ الوصية مثل قولة صلى الله عليه وسلم: " استوصوا بالنساء خيراً "، أو يظهر لنا اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالأمر من خلال السياق كالتأكيد بتكرار الأمر كقوله صلى الله عليه وسلم: " الصلاة الصلاة "
2. أن يقع التصريح باليوم الذي جرت فيه الوصية أو تحف بالوصية قرائن تدل على أنه صلى الله عليه وسلم أوصى في آخر حياته.
3. أن يلاحظ وقوع إخلال من بعض الأمة بمضمون الوصية، ما نحسب معه أنه صلى الله عليه وسلم خشي أو توقع إخلال الأمة بذلك فأوجب اهتمامه صلى الله عليه وسلم به في آخر حياته، إذ عادةً ما يهتم الأمور المهمة جداً، والتي يخشى أو يتوقع فواتها.

وتنطبق هذه المعايير كما نرى على الوصايا الآتية:

1. الوصية بالصلاة.
2. الوصية بالاعتصام بالكتاب والسنة
3. الوصية بآل البيت.
4. الوصية بالأنصار.
5. الوصية بطاعة أولي الأمر
6. الوصية بحرمة المسلم
7. الوصية بالنساء

8. الوصية بالخدم
9. الوصية بالأمانة
10. الوصية بإخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب
11. التحذير من الشرك
12. التحذير من البدع
13. التحذير من فتنة التهارج والاقتتال
14. التحذير من الربا
15. الوصية بتبليغ الدين

وقد ذكرنا كل وصية على حدة، مبتدئين بإيراد النصوص التي استندنا إليها في اعتبارها، ثم أردفنا ذلك بالتعليق عليها، مستعينين بالأدلة من الكتاب والسنة، ومستأنسين ببعض كلام جهابذة الإسلام من المفسرين وشرَّاح الحديث وقد حرصنا على عدم الإطالة ما وسعنا ذلك، والمقصود أن يكون الكتاب في متناول الجميع سهل العبارة بيِّن المنْزع.

والله نسأل أن يوفقنا إلى ما إليه قصدنا من النصح للملة والإفادة للأمة فهو الهادي لأقوم السبل والمستعان في إنجاح الأرَب.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المؤلفان

الوصية بالصلاة

1. أخرج الإمام أحمد في المسند من حديث أم سلمة، والحاكم وابن حبان من حديث أنس قال: كان آخر وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يغرغر بها في صدره، وما يفيض بها لسانه: " الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ".

2. وأخرج أبو دواود وأحمد وابن ماجه عن علي رضي الله عنه قال: كان آخر كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم: " الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ".

3. وأخرج أحمد والترمذي والحاكم وابن حبان عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: حججت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: " ألا لعلكم لا تروني بعد عامكم هذا، ألا لعلكم لا تروني بعد عامكم هذا، ألا لعلكم لا تروني بعد عامكم هذا، فقام رجل طويل كأنه من رجال شنوءة فقال: يا نبي الله فماذا نفعل؟ وفي رواية أحمد: يا رسول الله ماذا تعهد إلينا؟ فقال صلى الله عليه وسلم: اعبدوا ربكم وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم عز وجل ".

مكانة الصلاة

الصلاة عمود الدين، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأعظم أركان الإسلام العملية على الإطلاق، وهي أظهر شعار عملي لدين الإسلام، قال شمس الأئمة السرخسي الحنفي: (لأن الصلاة من أقوى الأركان بعد الإيمان بالله تعالى قال الله تعالى: [فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ]، وقال عليه الصلاة والسلام " الصلاة عماد الدين " فمن أراد نصب خيمة بدأ بنصب العماد، والصلاة من أعلى معالم الدين، ما خلت عنها شريعة المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين... إلى أن قال " وقد سمعت شيخنا الإمام الأستاذ شمس الأئمة الحلواني رحمه الله يقول

في تأويل قوله تعالى: " [وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي [(سورة طه ، آية 14) أي:(لأني ذكرتها في كل كتاب منزّل على لسان كل نبي مرسل).

وفي قوله تعالى: [مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَر (44) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ[(43) (سورة المدثر، آية 42 – 43)

ما يدل على وكادتها، فحين وقعت بها البداية دل على أنها ثانية الإيمان، فالمصلي في اللغة هو التالي للسابق في الخيل).. أ هـ

ومما يدل على عظمة منزلتها في الإسلام، أنها لا تسقط عن المسلم بحال، إلا مع سقوط التكليف عنه بذهاب العقل أو أن تكون المرأة حائضاً أو نفساء، فهي واجبة على المريض بحسب حالة؛ فقد قال المصطفى صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين: " صلِّ قائماً، فأن لم تستطع فقاعداً، فأن لم تستطع فعلى جنب" (أخرجه البخاري)، كما تجب على الآمن والخائف قال تعالى: [فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالا أَوْ رُكْبَانًا[(سورة البقرة، آية 239) أي: صلوا على الحال التي تتيسر لكم.

فلا يسقط وجوب أدائها في وقتها حتى عند التحام الصفوف أو الاقتحام في المعركة الجهادية فيصليها وإن كان الحل يضطره إلى المشي أو السعي أو مقارعة العدو بالسلاح.

وفي الصلاة أنس المشتاقين وراحة عباد الله المخلصين وعون أولياء الله المتقين [وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ[(سورة البقرة، آية 45)، ولكن للأسف الشديد وقع في أمة الإسلام التقصير فيها وقوعاً بيناً، ظاهراً لكل صاحب قلب حي، فالناظر في حال المسلمين اليوم يتفطر قلبه حزناً على ما آل إليه أمرهم تجاه هذه العبادة العظيمة فهم في كثير من الأحيان بين تارك لها بالكلية ومتهاون في المواظبة عليها، ومقصّر في بعض شروطها ومواقيتها، أما الإخلال بخشوعها فأمر ظاهر للعيان.

ولو أن أهل الإسلام قدروا الصلاة حق قدرها، وقاموا بها خير قيام، لكانت الصلاة سبباً في صلاح أحوالهم، وتقويم سلوكهم، فإنها كما قال أصدق القائلين: [وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ[(سورة العنكبوت، آية 45).

وعند النظر في واقع المسلمين ترى كثيراً ممن يصلي منهم لا يوجد للصلاة في سلوكه أثر، وأساس ذلك ومكمنه هو أن كثيراً من المصلين جعل الصلاة مجرد حركات وصورة ظاهرية دون حقيقة وخشوع، فلم تثمر الصلاة فيهم زكاة وصلاحاً فالله المستعان!

وأهمية الصلاة مع ما يشاهد من التقصير البيِّن فيها هو – والله أعلم – ما أقتضى وصية النبي صلى الله عليه وسلم بها في آخر حياته، فأوجب ذلك التأكيد على الوصية بها، حتى كانت آخر ما تكلم به وهو يغرغر فبأبي وأمي ما أنصحه لأمته فجزاه الله عنا خير الجزاء.

حكم الصلاة

قال ابن رشد المالكي: (وجوب الصلاة بيِّن من الكتاب والسنة والإجماع وشهرة ذلك تغني عن تكلُّف القول فيه).

مواقيت الصلاة

قال تعالى: [إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتًا.] (سورة النساء، آية 103).

قال الشوكاني في تفسير هذه الآية: أي: محدوداً معيناً يقال: وقَّته فهو موقوت، ووقتَّه فهو مؤقَّت. والمعنى: إن الله افترض على عباده الصلوات وكتبها عليهم في أوقاتها المحدودة، لا يجوز لأحد أن يأتي بها في غير ذلك الوقت، إلا لعذر شرعي من نوم أو سهو أو نحوهما. ا.هـ

ومما يدل على تعيُّن الوقت ووجوب فعل الصلاة فيه دون تأخير ولا تقديم، عدم سقوط التوقيت حتى في حال الخوف؛ فقد أوجب الله على المسلمين فعل الصلاة في أوقاتها حتى في حال الخوف ومواجهة العدو في الحرب قال تعالى: [حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (238) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالا أَوْ رُكْبَانًا] (سورة البقرة، آية 238 - 239).

وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأداء الصلاة في أوقاتها التي شرع الله؛ فقال كما في حديث أبي ذر: " صل الصلاة لوقتها " (أخرجه مسلم)

فيجب على المسلم أن يأتي بالصلوات الخمس في أوقاتها المعينة لها، فتأخيرها عن أوقاتها من غير عذر كنوم أو نسيان من أكبر الكبائر؛ بل عند بعض أهل العلم حكمه حكم ترك الصلاة، وحكم فاعله حكم تارك الصلاة.

فحذار حذار أخي المسلم من تأخير الصلاة عن وقتها وأنت تقرأ قول الله تعالى: [فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ (5)] (سورة الماعون، آية 4-5).

قال القرطبي: عن ابن عباس رضي الله عنه: " الذين يؤخرونها عن أوقاتها ".

آداب الصلاة

1. الإخلاص لله؛ فالمراءة بالصلاة من صفات المنافقين قال تعالى عنهم: [يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً (142)] (سورة النساء، آية 142).
2. النشاط لها والفرح بها؛ فإن الكسل والتثاقل عنها من صفات المنافقين قال تعالى عنهم: [وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى] (سورة النساء، آية 142).
3. الاستعداد والتهيؤ لها بأمور منها:
   أ- لبس الثياب الحسنة.
   ب- صلاة النوافل القبلية حيث شرعت.
   ت- البعد عن أسباب تشويش الذهن، كالصلاة بحضرة طعام أو في حال شدة الحر أو شدة البرد.
4. صلاتها في جماعة للرجال، وصلاة الجماعة للرجل الآمن الصحيح واجبة، ومن أدلة وجوبها: قصة الأعمى الذي استأذن النبي صلى الله عليه وسلم لبعد بيته وعدم وجود قائد يقوده فلما سأله النبي صلى الله عليه وسلم هل تسمع النداء بالصلاة؟ فقال: نعم، قال: " فأجب " (أخرجه المسلم)
5. وحديث همه صلى الله عليه وسلم بإحراق بيوت المتخلفين عن الجماعة ولم يمنعه إلا الحفاظ على النساء والذرية وهو مخرج في الصحيح.

ومما يدل دلالة واضحة على عظم شأن الجماعة وأهميتها، عدم سقوطها حتى في حال الخوف، فقد شرعت الجماعة حتى في حال الخوف والقِتال، قال تعالى [وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً (102)] (سورة النساء، آية 102).

وهذا الأمر مما استقر في أذهان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حتى كانوا يعدون المتخلف عن الجماعة منافقاً، وكان الواحد منهم يتحامل على نفسه مع علته ليشهد الجماعة، واستمع إلى قول ابن مسعود رضي الله عنه حيث يقول: " من سرّه أن يلقى الله غداً مسلماً فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن؛ فإنَّ الله شرع لنبيه صلى الله عليه وسلم سنن الهدى وإنَّهنَّ من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتك سنة نبيكم لضللتم، به يهادى رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف (أخرجه مسلم).

1. تحري السنة في أفعال وأقوال الصلاة، حتى يتم للمسلم امتثال أمر المصطفى صلى الله عليه وسلم في قوله: " وصلوا كما رأيتموني أصلي " (أخرجه البخاري)

2. الخشوع فيها وإحضار القلب، وهذا أعظم آدابها؛ بل هو لبها وروحها، وسرها وإكسيرها الذي به تحقق الصلاة ثمارها التي لأجلها شرعت، من تحصيل التقوى وسائر الأخلاق الفاضلة، والتخلي عن مرذول الأخلاق وكل فاحشة ومنكر؛ بل إن ما يرجى بالصلاة من الثواب إنما يحصل للعبد بقدر خشوعه وحضور قلبه؛ فقد قال تعالى: [قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2)] وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الرجل لينصرف من صلاته وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها" (أخرجه أبو داود والطبراني والطحاوي)، وورد أن الخشوع أول ما يفقد من الدين؛ فعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"أول شيء يرفع من هذه الأمة الخشوع، حتى لا ترى فيها خاشعاً " قال الهيثمي في مجمع الزوائد: إسناده حسن

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: "يوشك أن تدخل المسجد فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً " (أخرجه الإمام أحمد).

والخشوع الحقيقي يتكون من جزأين:

<u>الجزء الأول ظاهر</u>: وهو سكون الأعضاء في الصلاة، والطمأنينة فيها وعدم الالتفات بالبصر.

<u>وجزء باطن</u>: وهو حضور القلب في الصلاة ليعي المصلي كل قول أو فعل في الصلاة فينتفع به في دنياه وأخراه.

وثَّم عوامل وأسباب تساعد على الخشوع وتعُين عليه، وجمّاع ذلك قول الله تعالى: [وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا. وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)] (سورة العنكبوت، آية 69).

ومن تلك العوامل ما يلي:

أ- إحسان الإعداد للصلاة والتهيؤ لها بأتم الوجوه وأكملها من إتمام الطهارة ولبس الثياب النظيفة واختيار المكان المناسب.

ب- استشعار الوقوف بين يدي الله سبحانه ومناجاته، فالمصلي واقف بين يدي مولاه سبحانه وتعالى يناجيه.

ج – المجاهدة في إحضار القلب.

د- الإستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.

هـ- تدبر ما يقرأ من القرآن وما يقول من الذكر.

و – التفكر في حركات الصلاة وكيف أنها حركات تذلل وتواضع لله سبحانه وتعالى.

ز – ترتيل القراءة تحسين الصوت بها.

ح – التنوع في القراءة والأذكار والأدعية.

ط – المحافظة على السنن القبلية والبعدية.

ي – النظر إلى موضع السجود.

الاعتصام بالكتاب والسنة

1- أخرج مسلم في صحيحه من رواية جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن جابر بن عبدالله في صفة حجة صلى الله عليه وسلم في حديثه الطويل بعد أن ذكر خطبته صلى الله عليه وسلم بنمرة والتي قال فيها صلى الله عليه وسلم: " وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت".

2- وأخرج البيهقي والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس في حجة الوداع فقال: " يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنة نبيه ".

3- وأخرج البيهقي والحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض ".

4- وفي موطأ مَالكٍ أنه بَلَغَهُ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ ".

5- وأخرج مسلم أيضاً عن زيد بن أرقم قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَوَعَظَ وَذَكَّرَ ثُمَّ قَالَ:

أَمَّا بَعْدُ! أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ! فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ، فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ ثُمَّ قَالَ:

وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدُ؟ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ

بَيْتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ. قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ, وَآلُ عَقِيلٍ, وَآلُ جَعْفَرٍ, وَآلُ عَبَّاسٍ. قَالَ: كُلُّ هَؤُلاءِ حُرِمَ الصَّدَقَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ "

تمهيد

هذه الوصية بنوعي الوحي: (القرآن) (وسنة النبي صلى الله عليه وسلم) مطابقة لوصايا القرآن الكريم في آيات كثيرة مثل قوله تعالى:[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ.] (سورة الأنفال، آية 20)، وقوله سبحانه: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا(59)] (سورة النساء، آية 59)، وقوله سبحانه:[رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ] (سورة البقرة، آية 129)، وقوله سبحانه:[لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (164).] (سورة آل عمران، آية 164).

وقوله تعالى: [وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (34)] (سورة الأحزاب، آية 34)، وقال سبحانه: [مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى(2) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4)] (سورة النجم، آية 3 - 4).

فالقرآن الكريم إلى جانبه سنة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم (أقواله وأفعاله وتقريراته)، هما مصدر دين الإسلام؛ عقيدةً وشريعةً لن يضل المسلم ما دام متمسكاً بهما. وكما قال المناوي في فيض القدير عند شرحه حديث أبي هريرة " تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوضَ قال رحمه الله: (إنهما الأصلان اللذان لا عدول عنهما ولا هدى إلا منهما، والعصمة والنجاة لمن تمسك بهما واعتصم بحبلهما، وهما الفرقان الواضح، والبرهان اللائح بين المحق إذا اقتضاهما والمبطل إذا خلاَّهما، فوجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة متيقن معلوم من الدين بالضرورة) أ.هـ

إن الكتاب والسنة فيهما الهدى والنور، محفوظان بحفظ الله، قال تعالى: [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9)] (سورة الحجر، آية 9)، فيهما حل كل المشكلات، وفيهما المواجهة الحكيمة لكل نازلة مهما اختلف الزمان وتغير المكان، وسعا كل جوانب الحياة: سياسة، واقتصادية، واجتماعية، وفردية.

قال سلمان الفارسي رضي الله عليه للذي قال له: قد علمكم نبيكم صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الخراءة؟ قال سلمان: " أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول أو أن نستنجي باليمين أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار أو أن نستنجي برجيع أو عظم " (أخرجه مسلم).

مكانة القرآن

لن يبلغ أحد في وصف القرآن الكريم ما بلغ القران في وصفه، كقوله تعالى: [وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى] (سورة الرعد، آية 21) – أي لكان هذا القرآن – وقول سبحانه: [وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. [(سورة الإسراء، آية 82)

وقوله سبحانه: [لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21). [(سورة الحشر، آية 21)، وقوله سبحانه: [كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ] (سورة الزمر، آية 23).

وبعد كلام الخالق في وصف كتابه فربما كان من أبلغ كلام المخلوقين في وصف القرآن ما ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله: " كتاب الله فيه خير ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، هو

الذي من عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم " (انظر: البداية والنهاية ج1 / ص 7).

مكانة السنة

أما السنة وهي المصدر الثاني لشرعة الإسلام، فهي مبينةً للقرآن شارحة لما قد يخفى منه قال تعالى: [وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ] (سورة النحل، آية 44).

وقال تعالى: [فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ] (سورة النساء، آية 59). قال ابن عطية في تفسيره: (هو سؤاله في حياته، والنظر في سنته بعد وفاته عليه السلام)، وقال ابن العربي المالكي: قال علماؤنا: (ردُّوه إلى كتاب الله، فإن لم تجدوا فإلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم) و قال تعالى: [وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا] (سورة الحشر، آية 7)،

وقال: [فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] (سورة النور، آية 63)

وقد فقه هذا المعنى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ففي الحديث الذي يروى عن مُعاذِ بن جبل لما أراد صلى الله عليه وسلم أن يبعثه الى اليمن قال: " كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟». قال: أقضي بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد في كتاب الله؟»، قال: أقضي بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «فإن لم تجد في سنة رسول الله؟»، قال: أجتهد رأيي ولا آلو، قال: فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده في صدري، وقال: «الحمد لله الذي وفَّق رسول الله لما يرضي رسول الله». (أخرجه أبو داود)

حفظ القرآن والسنة

كان من فضل الله على هذه الأمة ورحمته بها أن تكفل بحفظ كتابه، قال تعالى: [إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون (9)] (سورة الحجر, آية 9) فكان من مصداق ذلك ما هدى الله إليه

خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضي الله عنه مع جمع القرآن في مصحف واحد من الوثائق المكتوبة التي ساندها ما لا يحصى من صدور الحفاظ. ثم هدى الله الأمة بعد أقل من ثمانية عشر عاماً مضت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لكتابته على حرف واحد بأمر أمير المؤمنين ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، فحمى الله كتابه أن يتعرض لما تعرضت له كتب الأديان الأخرى من ضياع وتغيير، فضل من بين كتب الأديان الأخرى كلها الوحيد الثابت بالسند إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلم ينله أي تغيير طوال القرون.

ثم وفق الله هذه الأمة لتوثيق سنة نبيه صلى الله عليه وسلم بإتباع علمائها في وقت مبكر منهجاً مبتكراً لم يسبقوا إليه ولم يلحقوا فيه؛ فبفضل هذا المنهج صار من المتيسر التمييز بين صحيح الحديث وضعيفه، ومرفوعه وموقوفه، ومتصله ومنقطعه، وناسخه ومنسوخه.

والأمر في هذا أعظم من أن يوصف، ولا يدرك دقائقه إلا من كان من ذوي الاختصاص الذين أمضوا قدراً كافياً من أوقاتهم في النظر في أعمال المحدثين والاطلاع على سيرهم ومؤلفاتهم.

ولقد تميزت هذه الأمة بصحة مصادرها وحفظها وتوثيقها بما لم يتفق لدين آخر من الأديان الشائعة في هذا العصر؛ فالإسلام وحده هو الدين الوحيد الذي يوجد لدى أتباعه اليقين الكامل عن شخصية النبي الذي جاء به، ودقائق سيرته وحياته العامة والخاصة، وكذا اليقين بأن الكتاب الذي جاء به لم يتغير أو يبدل أو ينقص منه أو يُزدْ فيه عن الأصل الذي جاء به.

أما الأديان الأخرى فكما يعلم كل مَطلع على تاريخ الأديان، لا يوجد لدى متدينيها يقين بأن مؤسسيها قد وجدوا أصلاً في الحياة، ولا يوجد لديهم يقين باتصال سند الكتب المقدسة إلى الأنبياء المنسوبة إليهم؛ بل الثابت لديهم تعرضها للتحريف والتغيير، ووجود الاختلاف والتناقض وإتيان الباطل لها من بين يديها ومن خلفها.

الإخلال بالاعتصام بالكتاب والسنة

كما توقع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فقد وجد في هذه الأمة على مر الأزمنة من التقصير في الانتفاع بكتاب الله وسنة نبيه وطلب الهدى منهما ما هو أشهر من أن يطال فيه الكلام، وفي خصوص السنة فقد وجد في هذه الأمة من نقص علمه أو غلبه هواه فحاول أن يفرق

بين نوعي الوحي في وجوب إتباعهما والتمسك بهما، بدعوى الاستغناء بالقرآن عن السنة في العلم والعمل، ولقد نبأ صلى الله عليه وسلم بذلك؛ فعن المقداد بن معد يكرب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " يوشك الرجل متكئاً على أريكته يحدث بالحديث من حديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرَمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله " (أخرجه أبو داود وابن ماجه والترمذي وقال: حسن الصحيح)

واقرأ أخي المسلم في الرد على أمثال هؤلاء قوله تعالى: [مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ] (سورة النساء، آية 80)، وقوله: [قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ] (سورة آل عمران, آية 31)، وقوله: [وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا] (سورة الأحزاب, آية 36)، وقوله: [لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ] (سورة النحل، آية 44)، وقال تعالى: [فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] (سورة النساء, آية 65)، والحق أن كل انحراف فكري أو عملي وقع في هذه الأمة كان بسبب الإخلال بالتمسك بهذين الثقلين من نوعي الوحي: القرآن والسنة، والزيغ عنهما، وتقديم غيرهما من مصادر المعرفة والفكر عليهما، والغفلة عن أن الله يعلم والخلق لا يعلمون، وأن الوحي لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً؛ فالحمد لله رب العالمين على إكمال دينه وإتمام نعمته ورضاه لنا الإسلام ديناً.

الوصية بآل البيت

1- أخرج مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ. فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَوَعَظَ وَذَكَّرَ ثُمَّ قَالَ:

أَمَّا بَعْدُ! أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ! فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ، فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ ثُمَّ قَالَ:

وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمْ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدُ؟ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ, وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ. قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ, وَآلُ عَقِيلٍ, وَآلُ جَعْفَرٍ, وَآلُ عَبَّاسٍ. قَالَ: كُلُّ هَؤُلَاءِ حُرِمَ الصَّدَقَةَ؟ قَالَ: نَعَمْ "

2- وأخرج البخاري وغيره عن أبي بكر رضي الله عنه قال: " ارقبوا محمداً صلى الله عليه وسلم في اهل بيته "، وأخرج البخاري وغيره عنه أنه قال: " والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلى أن أصل من قرابتي "

3- وأخرج مسلم عن صفية بنت شيبة قالت: قالت عائشة رضي الله عنها: خرج النبي صلى الله عليه وسلم ذات غداة وعليه مِرْطُ مُرَحَّل من شعر أسود فجاء الحسن رضي الله عنه فأدخله معه ثم جاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها معه ثم جاء علي فأدخله معه ثم قال: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ".

من هم آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم؟

قال سبحانه وتعالى في خطاب زوجات النبي صلى الله عليه وسلم: [وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا] (سورة الأحزاب، آية 33 - 34)، الآية الكريمة وإن كانت – كما هو ظاهر من السياق – نزلت في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فهن المقصودات بالنص، إلا أن أهل البيت لا يختص بهن؛ بل يشمل معهن قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كما في حديث عائشة رضي الله عنها (الذي مر آنفاً)، وكما في حديث زيد بن أرقم عندما سئل زيد بن أرقم من هم أهل بيته؟ قال: أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال السائل: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس " (أخرجه مسلم).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما تمرة من تمر الصدقة

فجعلها في فيه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كخ كخ، أرم بها،" أما علمت أنا لا نأكل الصدقة؟! " وفي رواية لمسلم: " أنَّنا لا تحل لنا الصدقة ". وجاء في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: "قولوا: اللهم صلى على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل أبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل أبراهيم ׳ إنك حميد مجيد "، وهذا يفسَّر اللفظ الأخير للحديث: " اللَّهم صَلِّ على محمَّد وعلى آل محمَّد، وبارك على محمَّد وعلى آل محمَّد ׳، فالآل هما هُم الأزواج والذرية كما في الحديث الأول، والنص يقتضي تفسير (الآل) في آل محمد بمعنى (الآل) في آل إبراهيم، قال تعالى: [قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (73)] (سورة هود، آية 72 - 73)

فالسياق يدل على أن أهل البيت يشمل إبراهيم وزوجته وإسحاق ويعقوب، ويقتضي كل ما سبق أن آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم بالمعنى الواسع هم كل من تحرم عليه الزكاة بسبب قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم.

بعض ما ورد في فضائلهم

في الصحيحين عن المسور بن مخرمة قال: إن عليا خطب بنت أبي جهل فسمعت بذلك فاطمة فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح بنت أبي جهل فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعته حين تشهد يقول أما بعد أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثني وصدقني وإن فاطمة بضعة مني وإني أكره أن يسوءها والله لا تجتمع بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت عدو الله عند رجل واحد فترك علي الخطبة. وفي رواية: " فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني "، وفي رواية أيضاً: فاطمة بضعة مني، يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها.

وروي البخاري رحمه الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: " أنت مني وأنا منك ". كما قال صلى الله عليه وسلم في حق الحسن بن علي رضي الله عنه: " إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين " (أخرجه البخاري)، وقال في الحسين بن علي: "اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ ¬ (متفق عليه)، وقال الله تعالى في أزواجه صلى الله عليه وسلم

[النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ] (سورة الأحزاب، آية 6)، وفي اختصاص الله للمباهلة بهم في آية المباهلة أكبر دليل على فضلهم، قال تعالى: [فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (61) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ] (سورة آل عمران، آية 61 - 62).

حقوق آل البيت

إن محبة آل بيت النبوة وإجلالهم فرض شرعي قال النبي صلى الله عليه وسلم " وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي؛ ولأن محبتهم من محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذه المحبة والإجلال لأهل البيت تقتضي:

1. معاملتهم بما يليق بهم.
2. والدعاء لهم في الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم
3. وتولي الصالحين منهم مجالستهم والأخذ عنهم، والبر بهم وتطييب خواطرهم؛ والرغبة في القرب منهم، ومصاهرتهم تزوجاً أو تزويجاً.
4. مناصرتهم والبذل لهم، والذب عنهم، وذكر مناقبهم ومحاسنهم.
5. مناصحة غير الصالح منهم والشفقة عليهم والرحمة به، ودعوته إلى نهج آل البيت الطيبين الطاهرين. قال الآجري رحمة الله: (واجب على كل المسلمين محبة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإكرامهم واحتمالهم، وحسن مداراتهم والصبر عليهم، والدعاء لهم).
6. استحقاقهم من الخمس والفيء، قال الله تعالى: [وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ] (سورة الأنفال، آية 41).

وقال تعالى: [مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا] (سورة الحشر، آية 7).

وما زال المسلمون يضمنون عقائدهم النص على حقوق آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، كما جاء في العقيدة الطحاوية تأليف الإمام أبي جعفر الطحاوي الحنفي من علماء القرن الثالث الهجري: (ومن أحسن القول في اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه الطاهرات من كل دَنسَ، وذرياته المقدسين من كل رجس، فقد برئ من النفاق).

وكما جاء في العقيدة الواسطية تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي من علماء القرن السابع الهجري في سياق سرد عقائد أهل السنة والجماعة قال: (ويحبون آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال يوم غدير خم: " أذكركم الله في أهل بيتي " وقال أيضاً للعباس عمه وقد اشتكى إلية أن بعض قريش يجفون بني هاشم فقال: " والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبونكم لله ولقرابتي "

(أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد في المسند). أ.هـ).

العلاقة بين آل البيت وأصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم

حفظ الصحابة رضوان الله عليهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم في آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم؛ فهذا أبو بكر يقول لعلي رضي الله عنهما جميعاً: " والذي نفسي بيده، لقرابةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلى أن أصل من قرابتي "، ويقول: "أفتنا يا أبا الحسن "، ولى رضي الله عنه يوماً العصر ثم خرج يمشي، فرأى الحسن يلعب مع الصبيان، فحمله على عاتقه وأخذ يرتجز:

بأبي شبيةٌ بالنّبيَ لا شَبيهٌ بعليَ

وعلى رضي الله عليه معَه يضحَك.

وحينما وضع عمر الديوان ليوزع بيت المال بدأ بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ظن الناس أنه يبدأ بنفسه فلم يفعل؛ بل قال: " ضعوا عمر حيث وضعه الله (طبقات ابن سعد ج3 / ص 295)، فكان نصيبه في نوبة بني عدي وهم متأخرون عن أكثر بطون قريش.

أما عائشة رضي الله عنها فأصح الطرق في مناقب علي رضي الله عنه وكان من رواياتها، فقد روت حديث الكساء في فضل علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين، وكانت تحيل السائلين والمستفتين إلى علي رضي الله عنه، وطلبت رضي الله عنها بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه أن يلزم الناس علياُ؛ فقد سألها عبدالله بن بديل بن ورقاء الخزاعي: من يبايع؟ فقالت: " الزم عليا ".

وقال رجل لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إني لأبغض عليا، فقال له ابن عمر: " أبغضك الله، أتبغض رجلاً سابقة من سوابقه خير من الدنيا وما فيها؟!".

وكذلك آل البيت يبادلون الصحابة مشاعر المحبة والتقدير؛ فعن أبي جُحيفة – وهو الذي كان علي يسميه وهب الخير – قال: قال لي علي: " يا أبا جحيفة، ألا أخبرك بأفضل هذه الأمة بعد نبيها؟ قال: أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، وبعد أبى بكر عمر وبعدهما آخر ثالث لم يسَمه (أخرجه أحمد والطبراني في الأوسط)، وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "وضع

عمر على سريره – يعني بعد وفاته -. فتكفنه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع، قال ابن عباس: وأنا فيهم، فلم يرعني إلا رجل أخذ بمنكبي فإذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فترحم على عمر وقال: ما خلفَتَ أحداً أحب إلي أن ألقى الله بمثل عَمَله منك، وايمٌ اللهِ إن كنتُ لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وحسبت أني كثيراً أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: " ذهبت أنا وأبو بكر وعمر " و"دخلت أنا وأبو بكر وعمر " و" جئت وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ".

أما عائشة رضي الله عنها فإن عليا رضي الله عنه بالرغم مما وقع بينهما من خلاف في شأن قتلة عثمان كان يكرمها ويجلها ويحفظ لها مكانها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد وقف رجلان على باب دارها في البصرة، فقال أحدهما: جزيت عنا أمنا عقوقاً، وقال الآخر: يا أمنا، توبي فقد أخطأت، فبلغ ذلك علياً فبعث القعقاع بن عمرو إلى الباب، فأقبل بمن كان عليه، فأحلوا على الرجلين، فضربهما مائة سوط وأخرجهما من ثيابهما " (الكامل في التاريخ ج3/ص144). وعن الشعبي قال: (لقد رأى علي رضي الله عنه طلحة في وادٍ ملقى – يعني بعد الحرب -. فنزل فمسح التراب عن وجهه وقال: عزيز علي – أبا محمد – أن أراك مجندلاً، إلى الله أشكو عجري وبجري. فترحم عليه ثم قال: ليتني متٌّ قبل هذا بعشرين سنة) وكان يقول: (إني لأرجو أن أكون وطلحة والزبير ممن قال الله فيهم: [وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مّنْ غِلّ إِخْوَاناً عَلَىَ سُرُرٍ مّتَقَابِلِينَ] (سورة الحجر، آية 47). (انظر: أسد الغابة ج3/ص86)

وفي سنن البيهقي الكبرى عن أبي حبيبة مولى طلحة، قال: دخلت على علي رضي الله عنه مع عمران بن طلحة بعد ما فرغ مت أصحاب الجمل، قال: فرحب به وأدناه، وقال: أني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله عز وجل: [وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مّنْ غِلّ إِخْوَاناً عَلَىَ سُرُرٍ مّتَقَابِلِينَ] (سورة الحجر، آية 47)، فقال: يا ابن أخي كيف فلانة؟ كيف فلانة؟ قال: وسأله عن أمهات أولاد أبيه؟ فقال رجلان جالسان ناحية، أحدهما الحارث الأعور: الله أعدل من ذلك، أن نقتلهم ويكونوا إخواننا في الجنة! قال: قوما أبعد أرض الله وأسحقها، فمن هو؟ إذا لم أكن أنا وطلحة! يا ابن أخي إذا كانت لك حاجة فأتنا " وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ومن صور التلاحم الذي كان بين النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ما كان بينهم من المصاهرة؛ فقد تزوج صلى الله عليه وسلم عائشة وحفصه ابنتي أبي بكر وعمر، وعثمان تزوج رقية وأم كلثوم ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي سمي ثلاثة من أبنائه أبا بكر وعمر وعثمان، وزوج ابنته أم كلثوم لعمر بن

الخطاب رضي عنهم أجمعين، والحسن تزوج أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله، وتزوج حفصة بنت عبدالرحمن بن أبي بكر، وسمى أولاده أبا بكر وعمر وطلحة، والحسين سمى ولده عمر، وهذا الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه وعن آبائه جده لأمه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فأمه فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، وأقم القاسم هي أسماء بنت عبدالرحمن بن أبي بكر، ولهذا كان الإمام جعفر يقول: " ولدني الصديق مرتين ".وما تدل عليه الأحاديث الصحيحة من الموالاة والمحبة بين الصحابة ولا سيما الخلفاء الأربعة الراشدين المهديين هو ما يتفق مع العقل والمنطق وما تقتضيه طباع الأشياء فهم الذين وصل القرآن والإسلام للناس على أيديهم وهم أحق من يلتزم بقيم الإسلام، ولا سيما ما أوجب الله من الأخوة بين المؤمنين: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ] (سورة الحجرات، آية 10)، والموالاة بينهم: [وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ] (سورة التوبة، آية 71)، والتواد والتراحم: " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر " (متفق عليه). ومعروف أن عصرهم هو العصر الذهبي للإسلام الذي طبقت فيه أحكام الإسلام وتعاليمه أكمل من أي عصر جاء بعده.

فلا يلتفت بعد هذا إلى ما ورد في بعض التواريخ من أخبار لا تتفق مع الأحاديث الصحيحة التي أوردنا نموذجاً منها، لأن أخبار التاريخ على خلاف الأحاديث الشريفة لم تخضع توثيقاً وتدقيقاً للمعايير الصارمة في تقييم الأخبار، وكثير منها كان نتيجة للأهواء والعصبية.

وما هو ثابت من وقائع التاريخ كحرب الجمل وصفين؛ فإن مسافة شاسعة من الزمن وعدم العلم تفصلنا عن ظروف هذه الوقائع وملابساتها، وأخبار التاريخ عنها متناقضة، وكثير منها نابع عن هوى أو عصبية، والواجب علينا في هذا أن نقول كما أرشدنا الله: [وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ] (سورة الحشر، آية 10)، ونعتذر للصحابة في مثل هذا بأنهم مجتهدون، للمصيب منهم أجران وللمخطئ أجر، وهذا ما يجب لهؤلاء الأخيار، فنعرف لهم سابقتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهودهم بعده في نصر الإسلام ونشره، وقد علمنا الله تعالى أن الخلاف بين المؤمنين لا يترتب عليه زوال وصف الإيمان عنهم؛ فقد قال تعالى: [وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ

فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ] (سورة الحجرات, آية 9 - 10)، فسمى كلتا الطائفتين إخوة مؤمنين.

آل البيت ليسوا معصومين ولا مشروعين

إن المعصوم من لا يجوز عليه الخطأ، ومن لا يجوز عليه الخطأ من البشر هم الأنبياء والذي أوحى الله إليهم بالوحي وأمرهم بتبليغه؛ إذ لو جاز عليهم الخطأ في التبليغ لقدح ذلك فيما يبلغونه.

وآل البيت مثل غيرهم من البشر يجتهدون ويخطئون فما اجتهدوا فيه وأصابوا فلهم أجران وما اجتهدوا فيه فأخطئوا فلهم أجر.

أما حديث الذي رُوي من طُرق في غير الصحيحين: " إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي، الثقلين أحداهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي، أهل بيتي، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض "، فلا يجوز أن يفهم منه أن أهل البيت مصدر للتشريع مثل القرآن والسنة.

وهذا الحديث بصرف النظر عن تضعيف من ضعفه من علماء الحديث، لا يدل على الأمر باتباع كل فرد من أفراد آل البيت؛ لأنهم في الوقت الواحد متعددون ويختلفون في مذاهبهم وفتاواهم وقد يخطئ بعضهم بعضا والاتباع إنما يكون الواحد كما أوجب الله اتباع القرآن واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فغاية ما يدل عليه الحديث المذكور – إن صح وكان لفظه محفوظاً -: الأمر باتباع هديهم وسنتهم في الجملة كما جاء في حديث: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهدين من بعدي " والخلفاء الراشدين كما عليه أهل السنة والجماعة ليسوا معصومين ولا يستقلون بالتشريع ويجوز عليهم الخطأ، ويستدرك بعضهم على بعض، فأحكامهم حُكم المجتهد الذي إن أخطأ له أجر وإن أصاب فله أجران.

وأحسن ما يفسر به الحديث – إن صَح – ما قاله القرطبي في المفهم؛ فقد قال رحمة الله: (هذه الوصية وهذا التأكيد العظيم يقتضي وجود احترام آل النبي محمد صلى الله عليه وسلم وإبراهيم وتقديرهم ومحبتهم وجوب الفروض المؤكدة التي لا عذر لأحد في التخلف عنها) أ. هـ

الوصية بالأنصار

1- أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مر أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي صلى الله عليه وسلم منا، فدخل على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك. قال: فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وقد عصب على رأسه حاشية برد، قال: فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم فحمد لله وأثنى عليه، ثم قال: أوصيكم بالأنصار؛ إنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم".

2- وأخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ملحفة متعطفاً بها على منكبيه وعليه عصابة دسماء حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أما بعد أيها الناس فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ".

3- وأخرج البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" آيةُ الإيمان حبُّ الأنصار، وآيةُ النفاق بغض الأنصار".

4- وأخرج البخاري ومسلم عن البراء رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم أو قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الأَنْصَارُ لا يُحِبُّهُمْ إلا مُؤْمِنٌ، وَلا يُبْغِضُهُمْ إلا مُنَافِقٌ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ "

5- وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر".

6- وأخرج البخاري عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَكَلَّمَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، مَرَّتَيْنِ.

7- وأخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أَنّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى صِبْيَانًا وَنِسَاءً مُقْبِلِينَ مِنْ عُرْسٍ، فَقَامَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُمْثِلًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ يَعْنِي الْأَنْصَارَ".

8- وأخرج أحمد في المسند عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى من تلك العطايا، في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة ... وفيه: فأتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهل، ثم قال: يا معشر الأنصار: ما مقالة، بلغتني عنكم؟ وجدة وجدتموها علي في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم قالوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل. ثم قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال صلى الله عليه وسلم: لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا. ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله في رحالكم؟ فو الذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار. وأبناء أبناء الأنصار.

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسما، وحظا. ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتفرقوا. (وأصله في الصحيحين)

من هم الأنصار، ولم استحقوا هذا الفضل؟

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: "الأنصار هو جمع ناصر كأصحاب وصاحب أو جمع نصير كأشراف وشريف واللام فيه للعهد أي أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد (الأوس والخزرج) وكانوا قبل ذلك يعرفون ببني قيلة بقاف مفتوحة وياء تحتانية ساكنة وهي الأم التي

تجمع القبيلتين فسماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار فصار ذلك علما عليهم وأطلق أيضا على أولادهم وحلفائهم ومواليهم أ.هـ

ويكفيهم أن الله أثنى عليهم بما صار قرآناً يتلى قال تعالى: [وَالَّذِينَ تَبَوَّئُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] (سورة الحشر، آية 9).

وإنها لعمر الله صفات يعز وجودها في الناس، وأعز من ذلك اجتماعها في فرد أو جماعة.

قال سيد قطب رحمه الله في ظلال القرآن في تعليقه على هذه الآية الكريمة: " وهذه صورة مضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار، وهذه المجموعة التي تفردت بصفات، وبلغت إلى آفاق، لولا أنها وقعت بالفعل لحسبها الناس أحلاماً طائرة ورؤىً مجنحة ومثلاً عليا صاغها خيال مُحلق، [وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ] أي: دار الهجرة، وقد تبوأها الأنصار قبل المهاجرين كما تبوءوا فيها الإيمان، وكأنه منزلة لهم ودار، وهو تعبير ذو ظلال وهو أقرب ما يصور موقف الأنصار من الإيمان، لقد كان دارهم ومنزلهم وموطنهم الذي تعيش فيه قلوبهم، وتسكن إليه أرواحهم، ويؤبون إليه ويطمئنون له، كما يؤب المرء ويطمئن إلى الدار.

[يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا] .. ولم يعرف تاريخ البشرية كلها حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين، بهذا الحب الكريم وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الرضية وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء...

[وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا] .. مما يناله المهاجرون من مقام بفضل في بعض المواضع ومن مال يختصون به كهذا الفيء فلا يجدون في أنفسهم شيئاً من هذا....

[وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ [.. والإيثار على النفس مع الحاجة قيمة عليا، وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيراً، وكانوا كذلك في كل مرة، وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديماً وحديثاً.

[وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [..فهذا الشح شح النفس هو المعوق عن كل خير؛ لأن الخير بذل في صورة من الصور: بذل في المال، بذل في العاطفة، بذل في الجهد، بذل في الحياة عند الاقتصاء، وما يمكن أن يصنع الخير شحيح يهم دائماً أن يأخذ ولا يهم مرة أن يعطي،

ومن يوق شح نفسه فقد وقي هذا المعوق عن الخير فانطلق إليه معطياً باذلاً كريماً، وهذا هو الفلاح في حقيقة معناه" أ. هـ.

وقد تضمنت الآية الكريمة النص على اجتماع الصفات السامية الخمس في الأنصار:

1. تبوؤهم للإيمان
2. محبتهم لمن هاجر إليهم، فلا يكرهونهم كما هي عادة الناس في كراهة الأجانب عنهم لمجرد أنهم كذلك.
3. سلامة قلوبهم من الحسد، فلا يحسدون الغرباء عنهم على ما نالهم من حظ من حظوظ الدنيا.
4. إيثار غيرهم على أنفسهم، ولو كانوا هم أنفسهم في حاجة لما يؤثرون به غيرهم.
5. وقايتهم من شح النفس وكزازة الطبع.

وحق لمن كانت له هذه الصفات أن يوالى ويحب، وأن تكون موالاته ومحبته من الإيمان، وأن يوصى بذلك رسول المحبة والرحمة صلى الله عليه وسلم.

حقوق الأنصار

-1 حبهم حباً يظهر في توقيرهم والثناء عليهم، والذب عنهم ونشر محاسنهم؛ لما مر من الأحاديث الحاثة على ذلك؛ ولأن محبتهم برهان محبة الله ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومحبة دين الإسلام.

قال ابن تيمية: "وقوله صلى الله عليه وسلم:" آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار" فإن من علم ما قامت به الأنصار من نصر الله ورسوله من أول الأمر وكان محباً لله ولرسوله أحبهم قطعاً فيكون حبه لهم علامة الإيمان الذي في قلبه ومن أبغضهم لم يكن في قلبه الإيمان الذي أوجبه الله عليه".

وهذه المحبة لعمومهم، قال ابن حزم في الإحكام: "وكذلك حبُّ الأنصار فضل في جميع الأنصار لا يعدوهم إلى غيرهم، ولا يقتصر به على بعضهم دون بعض "

2- البراءة من بغضهم؛ لما مر من الأحاديث، حتى عد أهل العلم بغضهم من الكبائر، قال ابن حجر الهيتمي في الزواجر:" الكبيرة الرابعة والخامسة والستون بعد الأربعمائة: (بغض الأنصار وشتم واحد من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين) أخرج البخاري أنه صلى الله عليه وسلم قال: " من علامة الإيمان حب الأنصار ومن علامة النفاق بغض الأنصار"، وأخرج الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم قال في الأنصار: " لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله "،.اخرج مسلم: " لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله اليوم الآخر أ. هـ

3- الرضا بما كان من الواحد منهم من إحسان وإن قل، والتجاوز عمن أساء منهم، لأمره صلى الله عليه وسلم بذلك، كما جاء في حديث ابن عباس السابق وفية: " فمن ولى منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه، فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم (أخرجه البخاري).

4- محاولة التأسي بهم في نصرة الله ونصرة رسوله ونصرة الإسلام، ورياضة النفس على التخلق بالصفات السامية التي وصفهم الله بها؛ لأن المحبة تقتضي المشاكلة.

الوصية بطاعة أولي الأمر

1- أخرج مسلم وابن حبان عن أم الحصين رضي الله عنها قالت: حججت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، فرأيت أسامة أو بلالاً، يقود بخطام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والآخر رافع ثوبه يستره من الحر حتى رمى جمرة العقبة ثم انصرف فوقف الناس وقد جعل ثوبه من تحت إبطه الأيمن على عاتقه الأيسر ثم ذكر قولاً كثيراً فيما يقول صلى الله عليه وسلم: " إن أمر عليكم عبدٌ مُجدعٌ أسود يقودكم بكتاب الله فأسمعوا وأطيعوا ".

2- واخرج الترمذي وابن حبان والحاكم عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فقال: " أيها الناس أطيعوا ربكم وصلوا خمسكم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا أمراءكم "، وفي لفظ: " ذا أمركم " وفي لفظ: " أطيعوا ولاة أمركم تدخلوا جنة ربكم " (وقال الترمذي: حسن صحيح).

3- وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي عن العرباض بن سارية قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَوْماً بَعْدَ صَلاَةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً؛ ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: « أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلاَفاً كَثِيراً، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلاَلَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ » (وقال الترمذي: حديث حسن صحيح).

وجوب طاعة الولاة:

من الأحاديث المذكورة يظهر لنا جلياً خطر الولاية وأهميتها لاستقامة الأمور، وأن ذلك كله لا يحصل إلا بطاعة هؤلاء الولاة والسمع لهم، وقد أمر الله تعالى بذلك لهم في كتابه فقال: [يَا أَيُّهَا

الّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرّسُولَ وَأُوْلِي الأمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً] (سورة النساء، آية 95).

قال ابن عطية في المحرر الوجيز في المقصود بأولي الأمر: " الأمراء على قول الجمهور: أبي هريرة وابن عباس وابن زيد وغيرهم ".

وقال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي لما ذكر الخلاف في المقصود بقوله تعالى: [وَ أُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ] هل هم الأمراء أم العلماء؟: " والصحيح عندي أنهم الأمراء والعلماء جميعاً، أما الأمراء فلأن أصل الأمر منهم والحكم إليهم، وأما العلماء فلأن سؤالهم واجب متعين على الخلق " أ. هـ

وقال الفخر الرازي عند تفسير هذه الآية: " اعلم أنه تعالى لما أمر الرعاة والولاة بالعدل بالرعية أمر الرعية بطاعة الولاة فقال: [يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرّسُولَ وَأُوْلِي الأمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً]؛ ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "حقٌ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة, فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا أ. هـ وقال رحمه الله في تفسير قوله تعالى: [وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا] (سورة النساء، آية 83).: " في أولى الأمر قولان: أحدهما: إلى ذوي العلم والرأي، والثاني: إلى أمراء السرايا، وهؤلاء رجحوا هذا القول على الأول، قالوا: لأن أولي الأمر، الذين لهم أمر على الناس، وأهل العلم ليسوا كذلك أ.هـ

وهذه التوجيهات والأوامر الإلهية هي ما أكده الناصح الأمين في سنته فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عبد حبشي كأن رأسه زبيبة (اخرجه البخاري)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " عليكم السمع والطاعة في عسرك ويسرك، ومنشطك ومكرهك، وأثرة عليك " (اخرجه مسلم)، وعن وائل بن حجر رضي الله عنه قال: سأل سلمة بن يزيد الجعفي رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويبخسونا حقنا فما تأمرنا؟ فأعرض عنه ثم سأله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم (اخرجه مسلم)، وعن عبدالله بن

عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من كره من أميره شيئا فليصبر، فإنه من خرج عن السلطان شبراً مات مِيتة الجاهلية (متفق عليه)

حدود الطاعة

مما سبق يظهر جلياً تعظيم الشريعة لأمر السمع والطاعة لولاة الأمر سواءً كانوا أبراراً أم فجاراً؛ فإن في ذلك حقن الدماء وبقاء أحوال الناس في استقامة وسلام، ولكن مما ينبغي أن يعلم أن السمع والطاعة لهم إنما هي في المعروف، كما قال عليه الصلاة والسلام: " إنما الطاعة في المعروف " (متفق عليه). فالطاعة المطلقة من خصائص الإلهية، فإذا أمروا بمعصية أو أمر مخالف للشرع فلا سمع ولا طاعة؛ فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة " (متفق عليه)، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وهنا تنبيه دقيق يخفى على كثير من الناس: وهو أن عدم طاعتهم في المعصية لا يلزم منه الخروج عليهم؛ بل عدم إتيان تلك المعصية التي أموره بها بخصوصها، مع لزوم الطاعة العامة التي دلت عليها النصوص الكثيرة المتكاثرة التي سقنا طرفاً منها فيما سبق، وقصة الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله مع المعتصم والواثق مثال على فهم السلف لهذا المعنى، فقد كان المعتصم والواثق يأمران بالقول بخلق القرآن، فيأبى عليهما الإمام أحمد، ومع هذا بقي على الطاعة في الجملة ومنع من الخروج عليهما رحمه الله.

وأمر آخر: أنه لا تلازم بين السمع والطاعة العامة ومحبتهم، كما لا يلزم من بغضهم لفجور أو ظلم الخروج عليهم، وهذا المقام مزلة أقدام، وقد حصل كثير من الفساد بسبب عدم فهمه، فربما أبغضوا من أجل فجورهم مع لزوم السمع والطاعة لهم في جملة ولا ضير في ذلك، ومما يدل على هذا التفريق ما أخرجه مسلم عن عوف بن مالك قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " خيارَ أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتُصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم، قال: قلنا يا رسول الله أفلا ننابذهم؟ قال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، لا، ما أقاموا فيكم الصلاة ".

تحريم الخروج على الأئمة

قال الإمام النووي في شرحه لمسلم: (وأما الخروج عليهم – يعني الأئمة – وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين، وإن كانوا فسقة ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرت) أ.هـ.

ونقل الحافظ ابن الحجر في الفتح عن ابن بطال قوليه: (وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب، والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه؛ لما في ذلك من حقن للدماء، وتسكين الدهماء، ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح) أ.هـ.

وقال الإمام الطحاوي: (ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعوا عليهم، ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة) أ.هـ.

وما هذا الاجتماع من السلف رحمهم الله على هذه القضية إلا لما في الخروج من الفساد العريض، ووقوع أحوال الناس في اضطراب لا يستقيم لهم معه دين ولا دنيا.

ومن المأثور عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: (إن الناس لا يصلحهم إلا إمام: برٌّ أو فاجرٌ، إن كان فاجراً عبد المؤمن فيها ربه، وحُمل الفاجر فيها إلى أجله) (أخرجه الطبري في تفسيره).

وقال أبو الحارث الصائغ: سألت أبا عبدالله – يعني أحمد بن حنبل – في أمر كان حدث ببغداد وهم قوم بالخروج، فقلت: يا أبا عبدالله ما تقول في الخروج مع هؤلاء؟ فأنكر ذلك عليهم، وجعل يقول: (سبحان الله، الدماء، الدماء، لا أرى ذلك، ولا آمر به، الصبر على ما نحن فيه خير من الفتنة، يُسفك فيها الدماء، ويستباح فيها الأموال، وينتهك فيها المحارم، أما علمت ما كان الناس فيه – يعني أيام الفتنة – قلت: والناس اليوم أليسوا هم في فتنة؟ قال: وإن كان فإنما هي فتنة خاصة، فإذا وقع السيف عمت الفتنة، وانقطعت السبل، الصبر على هذا ويسلم لك دينك خير لك).

ومن يتأمل التاريخ يرى أن أول مصيبة أصيب بها الإسلام هو خروج ثُلة من المسلمين على الإمام الراشد عثمان رضي الله عنه، ثم على الإمام الراشد علي رضي الله عنه، ولا يكاد يوجد خروج عن طاعة ولي الأمر أنتج خيراً للأمة أو لدنيها.

النصيحة لولاة الأمر

عن تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" (اخرجه مسلم).

وإن من أعظم حقوق الولاة على الرعية النصح لهم، وهو أشمل مما يتبادر إلى الأذهان من الموعظة أو الأمر والنهي، فالنصيحة لولاة الأمر تكون بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ودلالتهم على الخير وتحذيرهم من الشر؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم"(اخرجه مالك في الموطأ وابن حبان في صحيحه). كما تكون بصفاء القلب لهم وعدم إضمار الخيانة والغش لهم أو إرادة السوء بهم؛ فعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في خطبته بالخيف بمنى: " ثلاث لا يُغل عليهن قلب امرئٍ مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين " (اخرجه أحمد والترمذي والحاكم وصححه).

كما تكون بالدعاء لهم والتوفيق والإعانة؛ فإن بركة ذلك تعم رعيتهم؛ ولهذا كانت مقولة الفضيل بن عياض المشهورة: (لو كانت لي دعوة مستجابة لخبأتها للإمام)، وهذا من فقه هذا الإمام رحمه الله.

الوصية السادسة

حرمة المسلم

1- أخرج البخاري ومسلم عن أبي بكرة رضي الله عنه في خطبته صلى الله عليه وسلم يوم النحر بمنى عام حجة الوداع.... قال: قال صلى الله عليه وسلم: " أي يوم هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه سوى اسمه، قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى، قال فأي شهر هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس بذي الحجة؟ قلنا: بلى، قال: أي بلد هذا؟ قال: أليس البلدة، قلنا: بلى، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ".

2- واخرج البخاري والمسلم عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له في حجة الوداع: " استنصت الناس، فقال: لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض.

تمهيد

إن الأخوة الإسلامية هي أقوى الروابط وأمتنها قال تعالى: [إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ]

(سورة الحجرات، آية 10)، وقال: [وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ]

(سورة التوبة، آية 71)، ولقد جاءت شريعة الإسلام بتقرير ذلك وتأكيده، فأمرت بكل ما من شأنه توثيقها ومنعت من كل ما هوا سببٌ أو ذريعة إلى الإخلال بها.

ولقد بينت الشريعة بياناً شافياً لا لبس ولا خفاء فيه حقوق المسلم على المسلم، وبينت عظم شأن المسلم وحرمته، فكل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، ولا زال نبي الرحمة والهدى يوصي بحفظ هذه الحقوق، وعدم تجاوز هذه الحدود، حتى كانت هذه المقولة المؤثرة منه في ذلك

المحفل العظيم والمشهد الكبير، وقد أكد حرمة المسلم بكل المؤكدات التي تناسب المقام فصلى الله عليه وسلم ما أنصحه وأشفقه على أمته.

نظر عبدالله بن عمر رضي الله عنه إلى الكعبة ثم قال: " ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك " (أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب).

حرمة دم المسلم

قال الله تعالى: [وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيما] (سورة النساء، آية 93)، وقال عليه الصلاة والسلام: " سباب المسلم فُسوقٌ وقتاله كفر" (متفق عليه)، وقال عليه الصلاة والسلام: " لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدين المفرق للجماعة " (متفق عليه)، وقال عليه الصلاة والسلام: " لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق " (أخرجه النسائي في الكبرى والترمذي وابن ماجه)، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم عنوان إسلام المسلم سلامة المسلمين لسانه ويده فقال: " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " (متفق عليه).

حرمة عِرْض المسلم

إن حرمة عِرْض المؤمن لا تقلّ شأناً عن حرمة دمه؛ فقد قال الله تعالى: [وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا] (سورة الأحزاب، آية 58).

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر فنادى بأعلى صوته: " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإن من تتبع عورة مسلم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في قعر بيته " (أخرجه ابن حبان وأحمد وأبو داود الترمذي وقال: حسن غريب).

ويكفي أخي المسلم لتعرف خطورة هذا الباب أن تسمع حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " الربا ثلاثة وسبعون بابا، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم" (أخرجه الحاكم وصححه).

فسبحان الله ما أعظم شأن المسلم وأخطر عرضه!

حرمة مال المسلم

قال عليه الصلاة والسلام: "لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه " (أخرجه أحمد).

وقال: "من حلف على مال امرئ مسلم بغير حق لقي الله وهو عليه غضبان " (أخرجه مسلم).

وجماع الترهيب من كل ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لإصحابه: " أتدرون من المفلس "؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: " المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار" (أخرجه مسلم).

الوصاية بالنساء

1- أخرج الترمذي وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص قال: حدثني أبي أنه شهد حجة الوداع من رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ فقال: " ألا واستوصوا بالنساء خيرا فإنما هن عوان عندكم ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ألا إن لكم على نسائكم حقا، ولنسائكم عليكم حقا، فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن " (وقال الترمذي: حسن صحيح)، وفي مسند الشهاب من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ذلك كان في خطبة بوم النحر في حجة الوداع.

2- وعم جابر في حديثه الطويل الذي أخرجه مسلم في صحيحه في ذكر صفة حج النبي صلى الله عليه وسلم عند ذكر خطبته صلى الله عليه وسلم في عرفة قال فيها: " اتقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله " وظاهر سياق الحديثين يدل على تغايرهما فيحتمل بذلك أن يكون صلى الله عليه وسلم قد ذكر الوصية بالنساء في حجة الوداع في خطبته في عرفة، ثم في خطبته يوم النحر.

المرأة في الإسلام

المرأة في المجتمع المسلم بنت مصونة يحافظ عليها أبوها كجزء من حياته، وزوجة عزيزة مكفولة من زوجها مقضية حوائجها مكفية مؤنة الحياة، سكن لزوجها وهو سكن لها يتبادلان المودة والرحمة، وأم تتربع في مملكة رعيتها أولادها وأحفادها، أو قريبة يقع على عاتق قريبها القدار حق رعايتها وحمايتها.

وفي المقابل فإن المرأة في بعض المجتمعات، قد تكون أنثى تجذب أنظار وشهوات الذئاب البشرية التي لا تريدها إلا للمتعة فحسب، أو زوجة كادحة تأوي إلى بيتها كالَّة مرهقة لتشارك الرجل حتى في دفع أقساط البيت والسيارة، أو أما يقذفها أولادها في إحدى دور الرعاية الاجتماعية بعد كبرها تخلصا من عبء رعايتها ثم لا سؤال عنها ولا زيادة!

برُّ الوالدة:

لقد قرن الله وجود بٌر الوالدين توحيده فقال عز وجل: [وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا. وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا] (سورة الإسراء، آية 23 -24).

قال القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في أحكام القرآن عند تفسير هذه الآية: (بٌر الوالدين ركن من أركان الدين، وبرهما يكون في الأقوال والأعمال).

وقد أمر سبحانه بإحسان صحبتهما ولو كانا كافرين يُلحَان على ولدهما بالكفر؛ فقال تعالى: [وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ] (سورة لقمان، آية 15)، وقد بيٌنت السنة المطهرة أن أولى الوالدين بالبر وأحقهما بإحسان الصحبة الوالدة، فقد سأل رجلٌ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ فقال: " أمك "، قال: ثم من؟ قال: " أمك "، قال: ثم من؟ قال: " أمك "، قال: ثم من؟ قال: " أبوك " (أخرجه البخاري والمسلم). فالأم مقدمة في البر على الأب بثلاث مراتب.

وفي المقابل فقد جعل الشرع عقوق الوالدين من أكبر الكبائر ففي حديث أبي بكرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً. قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين وجلس وكان متكئاً وقال: ألا وقول الزور. قال فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت " (متفق عليه).

حسن عشرة الزوجة

بين القرآن الكريم أن غاية الزواج وجود السٌكَن بين الزوجين وقيام المودة والرحمة بينهما قال تعالى: [وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً] (سورة الروم، آية 21).

وقد أمر الله جل وعلا بإحسان عشرة الزوجة وإلا كان المخرج الفراق بإحسان فقال تعالى: [وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ] (سورة النساء، آية 19). وقال: [فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ] (سورة البقرة، آية 228)، وأوجب لها من الحقوق مثل الذي عليها فقال: [فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيراً] (سورة النساء، آية 19)، وقد بين المصطفى صلى الله عليه السلام بكلام جامع المعاشرة بالمعروف فقال: " أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم " (أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح). وقال: " خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي" (أخرجه الترمذي من حديث عائشة) وفصٌلت السنة معاشرة الزوجة، فقد سأل معاوية بن حَيْدة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: " أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبِّح ولا تهجر إلا في البيت " (أخرجه أبو داود).

وأشار صلى الله عليه وسلم إلى أن هذه العشرة الحسنة والحياة السعيدة لا تقوم إلا على أساس التنازل وغَضّ الطرف فقال: " لا يفرك – أي لا يبغض – مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها آخر " (أخرجه مسلم). وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في قوله تعالى في آية العشرة: [فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيراً] (سورة النساء، آية 19).

الإحسان إلى البنات

تعود الناس في كثير من المجتمعات وفي العصور المختلفة حُب البنين وإيثارهم على البنات؛ لذلك حرصت شريعة الإسلام على تقرير العدل بين الأولاد فمن ذلك المساواة بين الأولاد الذكور والإناث في العطاء والهبة؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم في عطية بشير الأنصاري والد النعمان بن بشير لما أراد أن يخصه بعطاء دون سائر إخوته: " اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم " (متفق عليه).

وقال كان بعض السلف يقوم بوجود التعديل بين الأولاد حتى في القُبل. وعنيت نصوص السنة بالتحذير من الإخلال بذلك؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: " اللهم إني أحرِّج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة " (أخرجه النسائي)، والمعنى: ألحق الحرج – الإثم بمن ضيع حق المرأة واليتيم.

كما رغُب في الرعاية الحسنى لهُن؛ فرتب على العناية بالبنات الستر من النار؛ فقال صلى الله عليه وسلم: " من أبتلي من هذه البنات بشيء، فأحسن إليهن، كن له ستراً من النار" (متفق عليه). بل أعظم من ذلك الوعد له بمرافقته صلى الله عليه وسلم في الجنة؛ فقد أخرج مسلم عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين، وضم أصابعه "

الوصية الثامنة

الوصية بالخدم

1- أخرج الحاكم وابن حبان عن أنس قال: " كَانَ آخِرُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يُغَرْغِرُ بِهَا فِي صَدْرِهِ مَا يَكَادُ يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ: الصَّلاةَ، الصَّلاةَ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ" (وأخرجه أحمد من حديث أم سلمة).

2- وأخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه عن علي بن أبي طالب قال: كان آخر كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصلاةَ الصلاةَ، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ".

تمهيد

كان الأرقاء والعبيد يعملون في حقول أسيادهم ويكلفون من العمل فوق ما يطيقون، ولم يكونوا يأكلون من الطعام إلا بقدر ما يضمن بقاءهم أحياء لخدمة الأسياد، وهم مع ذلك في أثناء العمل يساقون بالسياط لا لشيء إلا لإشباع نزوات السادة الذين كانوا يتلذذون بتعذيب هؤلاء المساكين الكادحين، هذه هي حال الخدم الأرقاء عند الرومان.

ولم تكن حالهم عند غيرهم من الفرس والهند والعرب ببعيد عن ذلك، حتى جاء الرحيم الرؤوف صلى الله عليه وسلم فأعطى العبيد حقوقاً تلزم السادة في الإسلام، وجعل السيد والعبد في التكليف والأوامر سواسية، فأعلى من شأن سلمان الفارسي المولى، ورفع صهيباً الرومي، وقال في بلال: " إني أسمع دَفٌ نعليك في الجنة " (متفق عليه)، وجعل العلاقة بينهم وبين السادة علاقة أخوة لا علاقة استعلاء واستعباد فقال صلى الله عليه وسلم: " إن أخوانكم خولكم " (متفق عليه).

ولا زال عليه الصلاة والسلام يوصي بهم خيراً حتى كانت الوصاة بهم آخر ما وصى به مع الوصية بالصلاة.

الإحسان إلى الخدم

أمرت الشريعة بالإحسان إلى الخدم وتقدمت صور تلك الأوامر حتى شملت جميع المناحي:

ففي الإحسان إليهم في النواحي النفسية أمر بمراعاة مشاعرهم في طريق المناداة فقال عليه الصلاة والسلام: " لا يقل أحدكم: عبدي أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي " (متفق عليه)، وكذا مراعاة مشاعرهم ساعة تناول الطعام فقال: " إذا أتى أحدكم خادمُه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين، فإنه ولي علاجه " (متفق عليه)، يعني: فهو الذي صنعه.

وفي الإحسان إليهم في النواحي الجسدية نهى عن تكليف الخدم فوق طاقتهم؛ فقد قام صلى الله عليه وسلم: " ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم " (متفق عليه). ورهب من ضربهم وحذَّر منه؛ فقد قال أبو مسعود الأنصاري: كنت أضرب غلاماً لي، فسمعت من خلفي صوتاً: " اعلم أبا مسعود لله أقدر عليك منك عليه " فألتفت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله هو حرٌ لوجه الله، فقال: "أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار " (أخرجه مسلم).

حقوق الخدم

إن الخدم في الإسلام ليسوا خلقاً دون خلق السادة؛ بل هم وإياهم سواء في أصل الخلقة، اقتضت حكمة الله أن يحصل هذا الفارق بينهما؛ ليتم ما أراد الله من عمارة الأرض؛ وليكون ذلك ابتلاء لكليهما وقد بين الله ذلك في قوله: [أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ] (سورة الزخرف، آية 32)،

وقال تعالى: [وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ] (سورة النساء، آية 25)، وليس هناك لفظ يدل على المساواة بين الناس أبلغ من لفظ بعضكم من بعض.

وقد ضمن الإسلام للخدم حقوقهم وألزم السادة بها، وهي إجمالاً: -

1- إطعامهم من جنس طعام السادة.

2- إلباسهم من جنس لباس السادة.

3- عند تكليفهم بأعمال فيجب أن تكون في حدود الطاقة.

4- إعانتهم على العمل عند تكليفهم به، تطييباً لخواطرهم، وتخفيفاً عنهم.

5- عدم ضربهم.

6- عدم تعييرهم.

7- اعتبارهم إخوة في الإسلام؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: " إن إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم " (متفق عليه).

8- المسارعة بدفع أجورهم، وعدم مماطلتهم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ" (أخرجه البخاري)

تنبيه

أكثر الأحاديث التي وردت في هذا الفصل وردت في الأرقاء، وبما أن الرق قد انتهى في العالم في الجلمة؛ تطبيقاً للاتفاقات الدولية والتي أصبحت بموافقة الدول الإسلامية عليها ملزمة بمقتضى الآية الكريمة: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ] (سورة المائدة، آية 1)؛ فإنه يدخل ضمن التوجيهات الواردة في الأرقاء، الخدم الذين يملك رب العمل أوقاتهم ونتَاج عملهم.

الوصية التاسعة

الوصية بأداء الأمانة

1- أخرج الإمام أحمد عن أبي حُرة الرقاشي عن عمه قال: كنت آخذاً بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في اوسط أيام التشريق أذود عنه الناس فقال: " يأيها الناس – وذكر خطبة طويلة – وفيها ... ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ".

2- وأخرج أحمد أيضاً والترمذي والبيهقي والطبراني عن ابي أمامه الباهلي صلى الله عليه وسلم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الخطبة عام حجة الوداع: "العارية مؤداه، والزعيم غارم، والدين مقضي" (وقال الترمذي: حسن غريب).

تمهيد

إن الأمانة في مفهومها الشرعي كلمة عظيمة ذات دلالات كبيرة هي أعم وأشمل مما قد يتبادل إلى الأذهان، قال الإمام القرطبي المالكي في تفسير قوله تعالى: [وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ]

(سورة المؤمنون، آية 8): (والأمانة والعهد: يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه، قولاً وفعلاً، وهذا يعم معاشرة الناس، والمواعيد وغير ذلك وغاية ذلك حفظه والقيام به) أ. هـ ولخطر الأمانة أبت الجبال والسموات والأرض على صلابتها وقوة خلقها حملها، وحملها الإنسان قال تعالى: [إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا] (سورة الأحزاب، آية 72)، وقد وصف الله الإنسان هنا بالظلوم والجهول لا لأنه حمل الأمانة، فحملها شرف وفضيلة، ولكن لتركه القيام بها وأداء واجبها بعد أن حملها.

وقد حصل الإخلال بالأمانة في الأمة حصولاً بيناً ففشت خيانات من يؤتمن، وتقصير الموظفين والأجراء في أداء ما عُهد إليهم؛ ولهذا اشتدت عناية المصطفى صلى الله عليه وسلم بها حتى في اللحظات الأخيرة؛ بل أخبر أنها أول ما يفقد من الدين فقال: " أول ما تفقدون من دينكم الأمانة " (أخرجه الحاكم وصححه).

واستمع إلى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه صاحب سر النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتحدث عن الأمانة: يقول صلى الله عليه وسلم: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر حدثنا عن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة، وحدثنا عن رفعها فقال: ينام الرجل النومة فتقبض، فيبقى أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً وليس فيه شيء فيصبح الناس يتبايعون، فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة، فيقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً، ويقال للرجل ما أعقله وما أظرفه وما أجلده، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان... الحديث (متفق عليه).

فضيلة الأمانة

لو لم يكن من فضيلة الاتصاف بالأمانة إلا أن النفوس تهفو إلى صاحبها وتجد في ضرورتها محبة وتقديره لكفى، كيف وهي امتثال لأمر الله تعالى في قوله: [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا]

(سورة النساء، آية 58)، وهي كذلك من أخص صفات المؤمنين فقد قال صلى الله عليه وسلم: " لا إيمان لمن لا أمانة له " (اخرجه الطبراني واين حبان).

وأتم المؤمنين إيماناً أنبياء الله ورسله كل واحد منهم كان يقول لقومه: [إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ] (سورة الشعراء، آية 107).

ولهذا كانت من أبرز سمات خير القرون، فعن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون....... الحديث " (متفق عليه). ولأهمية الأمانة في حياة المسلم

أمر الشرع بالتحلي بها حتى مع أهل الخيانة فقال صلى الله عليه وسلم: "أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك " (أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حسن غريب).

خيانة الأمانة من سمات المنافقين

فيما سبق علمنا أن التحلي بالأمانة من أخص صفات المؤمنين؛ بل أخصّ المؤمنين أصحاب النفوس الزكية والهمم العلية، وفي المقابل فإن أصحاب النفوس المريضة، والهمم الوضيعة من أخص أوصافهم الخيانة والغدر؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمن خان " (متفق عليه). وفي رواية " وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم "

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " لا يعجبنكم من الرجل طنطنته، ولكن من أدى الأمانة وكفً عن أعراض الناس، فهو الرجل " (أخرجه البيهقي في الكبرى).

إخراج المشركين واليهود والنصارى من جزيرة العرب

1- أخرج البخاري والمسلم عن ابن عباس رضي الله عنه أنو قال: يوم الخميس وما يوم الخميس؟ ثم بكى حتى خصب دمعه الحصباء فقال: اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه يوم الخميس فقال: وأوصى عند موته بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، ونسيت الثالثة وقال يعقوب بن محمد: سألت المغيرة بن عبد الرحمن عن جزيرة العرب؟ فقال: مكة والمدينة واليمامة واليمن، قال يعقوب: " والعرج أول تهامة".

والمقصود باليمن في الحديث: ما كان يمناً – أي جنوباً عن مكة – ولا يختص بيمن صنعاء ومخاليفها كما يوضحه كلام الشافعي الآتي.

2- أخرج مسلم عن جابر بن عبدالله قال: أخبرني عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما"

3- وأخرج أحمد عن عائشة قالت: كان آخر ما عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال: "لا يترك بجزيرة العرب دينان "

لما كانت هذه الجزيرة حرم الإسلام، وداره الأولى، قبلة المسلمين، منها فاض نور التوحيد، وإليها يأوي؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: " إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها " (أخرجه مسلم)، كان من الحكمة البالغة أن لا يكون لدين غير الإسلام وجود دائم فيه، سواء كان هذا الوجود ممثلاً في شخص أو منشأة أو مؤسسة.

والمقصود بجزيرة العرب في الأحاديث الشريفة – كما يدل عليه الجمع بين النصوص – ما هو واقع تقريباً داخل حدود المملكة العربية السعودية حالياً؛ فقد قال ابن قدامة في المغني: (يعني أن الممنوع من سكنى الكفار به: المدينة وما والاها، وهو: مكة واليمامة وخيبر والينبع وفدك

ومخاليفها وما والاها. وهذا قول الشافعي؛ لأنهم لم يجلوا من تيماء، ولا من اليمن) ... ثم قال – أي ابن قدامة: (فكأن جزيرة العرب في تلك الأحاديث أريد بها الحجاز) أ. هـ

وقال البيهقي في معرفة السنن والآثار: (والحجاز: مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها كلها؛ لأن تركهم سكنى الحجاز منسوخ وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم استثنى على أهل خيبر حين عاملهم فقال: " أقركم ما أقركم الله " (أخرجه مالك في الموطأ)، ثم أمرنا بإجلائهم من الحجاز، وساق الكلام.... إلى أن قال: يحتمل أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإجلائهم منها أن لا يسكنوها ويحتمل لو ثبت عنه: "لا يبقين دينان بأرض العرب ": لا يبقين دينان مقيمان) أ.هـ

وقال الشافعي: (ولم أعلم أحداً أجلاً أحداً من أهل الذمة من اليمن، وقد كانت بها ذمة وليست اليمن بحجاز).

وقال ابن القيم في أحكام أهل الذمة، بعد أن ذكر أن الكفار: إما أهل حرب أو أهل عهد، وأن أهل العهد ثلاثة أصناف: أهل ذمة، واهل هدنة، وأهل أمان، قال عن أهل الأمان: (وأما المستأمن فهو الذي يقدم يلاد المسلمين من غير استيطان لها، وهؤلاء أربعة أقسام: رسل، وتجار، ومستجيرون، حتى يعرض عليهم الإسلام والقرآن، فإن شاءوا دخلوا فيه، وإن شاءوا رجعوا إلى بلادهم.

وطالبوا حاجة من زيادة أو غيرها، وحكم هؤلاء ألا يهاجوا، ولا يقتلوا، ولا تؤخذ منهم الجزية، وأن يعرض على المستجير منهم الإسلام والقرآن، فإن دخل فيه فذلك، وإن أحب اللحاق بمأمنه ألحق به، ولم يعرض له قبل وصوله إليه، فاذا وصل مأمنه عاد حربياً كما كان).

وقال العلامة ابن عثيمين رحمه الله – شرح صحيح مسلم (مخطوط) – عندما سئل: هل يجوز استخدام العمال من أهل الكتاب من اليهود والنصارى؟ فقال: (نعم يجوز ذلك، لكم لا يجوز أن يسكنوا ويكونوا مواطنين، هذا ممنوع في جزيرة العرب لكن إذا دخلوا في تجارة أو عمل غير مقيمين دائما فلا بأس) أ. هـ كما يشهد لهذا ما رواه ابن خزيمة في صحيحه عن جابر رضي الله عنه في قوله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا] (سورة التوبة، آية 28). قال " إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة " أي: له عقد أمان من المسلمين، وليس المقصود أهل الذمة وبالاصطلاح الفقهي المعروف. فتحمل إذا دلالة حديث إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب على المنع من استيطان المشركين لجزيرة العرب، لا

إقامتهم فيها للعمل المؤقت، أو التجارة كما هو شأن الكفار الوافدين، وعدم تمكين الأفراد من الإقامة الدائمة في جزيرة العرب يدل من باب أولى على عدم جواز تمكين غير المسلمين من إيجاد منشئات أو مؤسسات، مثل أماكن العبادة، ومراكز الدعوة لدين غير الإسلام.

الوصية الحادية عشر

التحذير من الشرك وذرائعه

1- أخرج البخاري ومسلم عن عائشة وابن عباس رضي الله عنه قالا: لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: " لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا ".

2- وأخرج البخاري ومسلم عنها رضي الله عنه قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي لم يقم منه: " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، قالت عائشة: لولا ذلك لأبرز قبره، خُشي أن يتخذ مسجداً

3- وأخرج مسلم عن جندب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول: " ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك ".

4- واخرج البخاري ومسلم عن عائشة أن أم حبيبة وام سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا للنبي صلى الله عليه وسلم فقال إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة ".

5- وأخرج مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال: قَالَ لِي عَلِيٌّ: " أَلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَنْ لا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبرا مشرفاً إلا سويته ".

6- واخرج مسلم أيضاً عن جابر قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه.

تمهيد

إن أعظم ما أمر الله به عباده توحيده وإفراده بالعبادة والقصد؛ قال تعالى: [وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء] (سورة البينة، آية 5). وما أرسلت الرسل وانزلت الكتب إلا لأجل ذلك قال تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ] (سورة الأنبياء، آية 25).

وفي المقابل فإن أعظم الذنوب وأفظع الجرائم وأكبرها خطراً الشرك بالله؛ قال تعالى: [إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ] (سورة النساء، آية 48). قال: [إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ] (سورة المائدة، آية 72). قال: [وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ] (سورة الزمر، آية 65).

ولخطورة الشرك؛ فقد كان تحذير الناصح الأمين صلى الله عليه وسلم لأمته أشد التحذير منه ومن ذرائعه وأسبابه وكل ما يدو إليه.

أسباب الشرك وذرائعه

إن من أهم ذرائع الشرك وأسبابه وما يدعو إليه، الغلو في الصالحين، ولا سيما الأموات منهم واتخاذ قبورهم أماكن للعبادة وابناء عليها؛ فعن أبن عباس رضي الله عنهما: " أن وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم، عبدت (أخرجه البخاري). واللات التي ذكر الله من معبودات المشركين: أصله رجل صالح كان يصنع الطعام للحجاج فلما مات عكفوا على قبره؛ فعن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: [أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى] " كان اللات: رجلاً يلت سويق الحاج (أخرجه البخاري).

ومما سبق يتبين أن رفع قبور الصالحين وتماثيلهم، والبناء على قبورهم واتخاذها أماكن للعبادة من أهم أسباب الشرك وذرائعه، وإذا تأملت إنكار النبي صلى الله عليه وسلم الشديد على نصب صور الصالحين والبناء على قبورهم واتخاذها أماكن للعبادة اتضحت لك الحكمة من بعث النبي

صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليطمس الصور ويسوي بالأرض القبور التي رفعت بالبناء، وإذا قارنت هذا بالواقع في بلاد المسلمين وغفلة أهل العلم عن إنكار ذلك، تبين لك قوة أثر العادات والتقاليد؛ حتى كانت النتيجة قلة المُنكر والمغير لهذا المنكر الخطير! قال الإمام الشوكاني رحمه الله في شرح الصدور: (إن رفع القبور ووضع القباب والمساجد والمشاهد عليها قد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلة تارة، وتارة قال: "اشتد غضب على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " فدعا عليهم بأن يشتد غضب الله عليهم بما فعلوه من هذه المعصية، وذلك ثابت في الصحيح، وتارة ببعث من يهدمه، وتارة جعله من فعل اليهود والنصارى، وتارة قال: " لا تتخذوا قبري وثناً " وتارة قال: "لا تتخذوا قبري عيداً " أي: موسماً يجتمعون فيه، كما صار يفعله كثير، يجعلون لمن يعتقدونه من الأموات أوقاتاً معلومة يجتمعون فيها عند قبورهم ينسكون لها المناسك ويعكفون عليها فلا شك ولا ريب أن السبب الأعظم الذي نشأ معه هذا الاعتقاد في الأموات هو ما زينه الشيطان للناس من رفع القبور، ووضع الستور عليها، وتجصيصها، وتزيينها بأبلغ زينة، وتحسينها بأكمل تحسين، فإن الجاهل إذا وقعت عينه على قبر من القبور قد برزت عليه قبة فدخلها ونظر إلى القبة والستور الرائعة، والسرج المتلألئة، وقد سطعت حولها مجامر الطيب، فلا شك ولا ريب أنه يمتلئ قلبه تعظيماً لذلك القبر، ويضيق ذهنه عن تصور ما لهذا الميت من المنزلة، ويدخله من الروع والمهابة ما يزرع في قلبه من العقائد الشيطانية التي هي من أعظم مكائد الشيطان للمسلمين، وأشد وسائله إلى إضلال العباد ما يزلزله عن الإسلام قليلاً قليلاً حتى يطلب من صاحب ذلك القبر ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، وقد يحصل له هذا الشرك بأول رؤية لذلك القبر، الذي صار على تلك الصفة، وعند أول زيارة له؛ إذ لابد أن يخطر بباله أن هذه العناية البالغة من الأحياء بمثل هذا الميت لا تكون إلا لفائدة يرجونها منه، إما دنيوية أو أخروية، ويستصغر نفسه بالنسبة إلى ما يراه من أشباه العلماء زائراً لذلك القبر وعاكفاً عليه، ومتمسكاً بأركانه.

وقد جعل الشيطان طائفة من إخوانه من بني آدم يقفون على ذلك القبر، ويخادعون من يأتي إليه من الزائرين، يهولون عليهم الأمر ويصنعون أموراً من أنفسهم ينسبونها إلى الميت على وجه لا يفطن له من كان من المغفلين، وقد يصنعون أكاذيب مشتملة على أشياء يسمونها كرامات لذلك الميت ويبثونها في الناس ويكررون ذكرها في مجالسهم، عند اجتماعهم بالناس، فتشيع وتستفيض، ويتلقاها من يحسن الظن بالأموات، ويقبل عقله ما يروى عنهم من الأكاذيب فيرويها كما سمعها،

ويتحدث بها في مجالسه، فيقع الجهال في بلية عظيمة من الاعتقاد الشركي، وينذرون على ذلك الميت بكرائم أموالهم ويحبسون على قبره من أملاكهم ما هو أحب إلى قلوبهم؛ لاعتقادهم أنهم ينالون بجاه ذلك الميت خيراً عظيماً، وأجر كبيراً، ويعتقدون أن ذلك قربة عظيمة، وطاعة نافعة، وحسنة متقبله، فيحصل بذلك مقصود أولئك الذين جعلهم الشيطان من إخوانه من بني آدم على ذلك القبر، فإنهم إنما فعلوا تلك الأفاعيل، وهولوا على الناس تلك التهاويل، وكذبوا تلك الأكاذيب لينالوا جانباً من الحطام من أموال الطغام الأغتام، وبهذه الذريعة الملعونة والوسيلة الإبليسية تكاثرت الأوقاف على قبور، وبلغت مبلغاً عظيماً). انتهى كلامة رحمه الله.

وقال الإمام العلامة الشيخ محمد بن إسماعيل الصنعاني: (فاعلم أن هذه الأمور التي ندندن حول إنكارها، ونسعى في هدم منازلها، صادرة عن العامة الذين إسلامهم تقليد الآباء بدون دليل ومتابعتهم لهم من غير فرق بين دبير وقبيل، ينشأ الواحد فيهم فيجد أهل قريته، وأصحاب بلدته، يلقنونه في الطفولة: أن يهتف باسم من يعتمدون فيه، ويراهم ينذرون عليه ويعظمونه، ويرحلون به – أي الطفل – إلى محل قبره، فينشأ قد قر في قلبه عظمة ما يعظمون وقد صار أعظم الأشياء عنده من يعتقدونه، فنشأ على ذلك الصغير، وشاخ عليه الكبير، ولا يسمعون من أحد عليهم من نكير؛ بل ترى من تسمى بالعلم، وانتصب للقضاء أو، الفتيا أو التدريس أو الولاية أو المعرفة، أو الإمارة والحكومة، معظماً لما يعظمونه، مكرماً لما يكرمونه، قابضاً للنذور، آكلاً ما ينحر على القبور، فيظن العامة أن هذا دين الإسلام، وأنه رأس الدين والسنام، ولا يخفى على أحد يتأهل للنظر، ويعرف بارقة من علم الكتاب والسنة والأثر، أن سكوت العالم أو العالم على وقوع المنكر ليس دليلاً على جواز ذلك المنكر، فما كل سكوت رضى؛ فإن هذه منكرات أسسها من بيده السيف والسنان، ودماء العباد وأموالهم تحت لسانه وقلمه، وأعراضهم تحت قوله وكلمة، فكيف يقوى فرد من الأفراد على دفعه عما أراد؛ فإن هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك، وأكبر وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه، غالب – بل كل من يعمرها – هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة، إما على قريب لهم أو من يحسنون الظن به؛ من فاضل أو عالم صوفي أو فقير أو شيخ كبير، ويزوره الناس الذين يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به، ولا هتف باسمه، بل يدعون له، حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم، فيأتي من بعدهم فيجد قبراً قد شيِّد عليه البناء، وسرجت عليه الشموع، وفرش بالفراش الفاخر، وأرخيت عليه الستور؟ وألقيت عليه الأوراد والزهور، فيعتقد أن ذلك لنفع أو لدفع ضر، ويأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه

فعل وفعل، وأنزل بفلان الضرر، وبفلان النفع، حتى يغرسوا في جبلته كل باطل؛ ولهذا الأمر ثبت في الأحاديث النبوية اللعن واسعة معروفة، فإن ذلك في نفسه منهى عنه، ثم هو ذرعة إلى مفسدة عظيمة.

فإن قلت: هذا قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عمرت عليه قبة عظيمة وأنفقت فيها الأموال؟

قلت: هذا جهل عظيم بحقيقة الحال؛ فإن هذه القبة ليس بناؤها منه صلى الله عليه وسلم، ولا من أصحابه، ولا من تابعيهم، ولا من تابعي تابعيهم، ولا من علماء أمته، وأئمة ملته؛ بل هذه القبة المعمولة على قبره من أبنية بعض الملوك المتأخرين وهو قلاوون الصالحي المعروف بالملك المنصور في سنة ثمان وسبعين وستمائة، فهذه أمور دولية لا دليلية يتبع فيها الآخر الأولا). انتهى كلامه رحمه الله.

وقال علامه الهند الشيخ صديق حسن خان القنوجي: (ما زال أهل العلم في كل زمان ومكان، ولا يزالون يرشدون الناس إلى إخلاص التوحيد، وينفرونهم عن الوقوع في أي نوع من أنواع الشرك، ولكن لما كان الشرك أخفى من دبيب النمل – كما قال الصداق المصدوق صلى الله عليه وسلم – خفي على كثير من أهل العلم. وبناء على الذهول عن العلم وقعوا في بعض أمور الشرك، ويوجد هذا الذهول في مؤلفات الفحول، وفي أبيات كثير من الشعراء خاصة من قالوا قصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وسائر الملوك والسلاطين، حيث صدر من هذه الطائفة الغافلين أحياناً ما تقشعر منه الجلود وترتعد القلوب، ويخاف من أن يحل غضب الله على قارئه فضلاً عن قائله، وليس سببه إلا ذلك الذهول والغفلة لديهم أحياناً في أحوالهم ومقالاتهم، وأوكد أسباب الفتح لهذه الأبواب وتلك الأسباب هي: تشييد القبور ورفعها واتخاذ القباب عليها وتزيينها بستور فائقة، وإيقاد الشموع عليها، والاجتماع وإظهار الخضوع والاستكانة عندها، وطلب الحوائج من الأموات، ودعاؤهم من صميم القلب.

ولما توراث هذا الصنيع الآخر عن الأول، واتبع فيه الخلف السلف، واقتدى اللاحق بالسابق، تفاقم أمره، وتزايد شره، واشتد خطره. ففي كل قطر من الأقطار؛ بل في كل بلد من البلاد، ومدينة من المدن، وقرية من القرى، ومجتمع من المجتمعات، وجد مثل أولئك الأموات، واعتقد فيهم جماعة من الأحياء، اعتكفوا على قبورهم، وهذا الصنيع لدى هؤلاء المصابين بالشرك أمر

مستأنس، وفعل مألوف تقبله عقولهم، وتستحسنه أذهانهم، وتنبسط به نفوسهم، حتى حينما يولد لهم مولود ويصل إلى مرحلة فهم الخطاب، ما يقرع سمعه إلا مناداة أهل هذه القبور والعكوف عليها، وزيارتها، ويرى أن من تزل قدمه يدعو أحداً من أولئك الموتى، ومن يمرض فأهله الذين يريدون شفاءه يخرجون جزأً من أموالهم لذلك الميت، وعند الحاجة يتوسلون بصاحب ذلك القبر، ويقدمون إلى العاكفين والمجاورين لذلك المقبور الذين يأكلون أموال الناس بشتى الحيل ليتم ما أرادوا، وبعد ذلك عندما يكبر المولود وتكون تلك المسموعات والمرئيات مرتسمة ومستقرة في ذهنه وفكره؛ لأن طبع الصغير يكون قوياٌ في تأثره بالمؤثرات، وعندما يخرج من عند أبويه والمهد الذي تربى فيه يرى أن الناس على ما عليه أبواه، وكثيراً ما يحدث أن أول مكان بعد مولده يعرفه ويذهب إليه يكون قبراً من تلك القبور المعتقد فيها، ومشهداً من تلك المشاهد التي ابتلى بها الناس، ويلاحظ عند هذه القبور الزحام، والضجيج والصراخ والنداء والدعاء من الأبوين أو الآخرين الكبار، فاعتقاده المأخوذ من الأبوين يحصل له تأكيد وتأييد وتعزيز آخر، وخاصة حينما يرى المباني النفيسة على هذه القبور، وجدرانها مزينة بالألوان المتنوعة وعليها ستائر فائقة، وروائح العود والعنبر منها فائحه، والسرج والقناديل والشموع في جميع نواحيها ساطعة، والسدنة الذين يعكفون عليها ويحتالون على الناس بشتى الحيل ليأكلوا أموالهم، ويرى أنهم يعظمون هذه الأمور أقصى ما يمكن، ويدخلون هولها في قلوب الناس، ويوصلون الزائرين والوافدين إلى ذلك المكان آخذين بإيديهم ومظهرين غاية التعظيم، ويضربونهم على أدنى إساءة، وبهذا يزداد اعتقاد المسكين في ذلك القبر ومقبروه، وعند ذلك يرسخ في قلبه من العقيدة الفاسدة ما لا يمكن زوال منه إلا بتوفيق الله وهدايته ولطفه وعنايته.

وناشئ كهذا عندما يطلب العلم يجد أغلب أهل العلم – منهم – متفقين على ذلك الاعتقاد بشأن ذلك الميت، ويرى أنهم يعظمونه ويعدون حبه من أعظم الذخائر عند الله، ويطعنون من يخالف في هذا الأمر الباطل، ويقولون: إن ذلك الشخص ليس من معتقدي الأولياء ولا محبي الصلحاء، فلا بد أن يزداد حب هذا المشتغل بالعلم ويرسخ اعتقاده فيهم.

وهذه البدعة العظيمة والفتنة الكبرى التي طبقت الشرق والغرب، ووقع فيها كثير من الناس – اعني الاعتقاد في الأموات – قد وصل إلى حد خدش وجه الإيمان، وفت عضد الإسلام، وأساسه تشييد القبور والتفوق في بناء القباب على المقبورين والمبالغة في التهويل أمام زوار القبور بشتى

الوسائل التي توجب المهابة والتعظيم للأمور المتقدم ذكرها. ولا يستطيع أحد من العقلاء أن ينكر أن هذا الأمر من أعظم المحصلات للاعتقاد الفاسد، وأهم موجبات الوقوع في الفتن المخالفة لإخلاص التوحيد.

ومن يشك في هذا المعنى ولا يقبله عقله فعليه بالتتبع والاستقراء، وأقرب هذا التتبع والبحث أن يستفسر بعض العامة عن هذا المعنى فإنه يكاد يجد عند كل فرد من أفراد العامة ما ذكرته...."وختم القنوجي كلامه بقولة: " الحاصل أن الذي يجب علينا عند الوقوف على ما لا يجوز اعتقاده من مؤلفات المتقدمين وأشعارهم أو خطبهم أو رسائلهم أن نحكم على ذلك الموجود بما يستحقه ويقتضيه، ونوضح للناس ما فيه؟ ونحذرهم عن العمل به والركون إليه، ونكل أمر قائله إلى الله من التأويل له بما يمكن، وإبداء المعاذير له بما لا يرده الفهم ويأباه العقل، ولم يكلفنا الله سبحانه غير هذا، ولا استوجب علينا سواه). انتهى كلامه رحمه الله.

وإذا تأمل القارئ ما تقدم ظهر له السر في وصيته صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر وبالغ عنايته واهتمامه به.

وهفي هذا المعنى يقول أحد العلماء في القرن الثامن الهجري: (ومن أعظم مكايده – يعني الشيطان – التي كاد بها أكثر الناس وما نجا منها إلا من لم يرد الله تعالى فتنته ما أوحاه قديماً وحديثاً إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور حتى آل الأمر فيها إلى أن عُبد أربابها من دون الله. وعبدت قبورهم، واتخذت أوثاناً، وبنيت عليها الهياكل وصورت صور أربابها فيها، ثم جعلت تلك الصور أجساداُ لها ظل ثم جعلت أصناماً وعبدت مع الله تعالى وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه حيث يقول: [قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً (21) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً]

(سورة نوح آية 21 – 24)، قال ابن جرير: وكان من خبر هؤلاء فيما بلغنا ما حدثنا به ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس: أن يغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين من بني آدم وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم فلما ماتوا وجاء أخرون ندب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر. فعبدوهم) انتهى كلامه رحمه الله.

ويقول الإمام الشوكاني: " انظر الحكمة البالغة فيما ورد عن الشرع من الزجر عن رفع القبور وتجصيصها وتسريجها ونحو ذلك، وإني لأكثر التعجب من تلقى هذه الأمة المرحومة لما ورد عن نبيها الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم من النهي عن ذلك والزجر عنه والتحذير منه مع مبالغته في ذلك كلية المبالغة، حتى كان من آخر ما قاله في مرضه الذي مات فيه: " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ". ثم انفتح باب الشر إلى جميع أقطار الأرض وطبق مشارقها ومغاربها، وبدوها وحضرها، فإنا لله وإنا إليه راجعون " انتهى كلامه.

وما ذكره هؤلاء العلماء الأجلاء الشوكاني، والصنعاني، والقنوجي، من نتائج مخالفة وصية النبي صلى لله عليه وسلم بعدم بناء على القبور واتخاذها مساجد، أمر واقع ومشاهد، وقد أوقعت هذه المخالفة كثير من عوام المسلمين وجهالهم في الشرك من حيث لا يعلمون، ومن أخطر ذلك وأكثره شيوعاً ما يشاهد عند قبور الصالحين، من دعاء العامة لهم بطلب النفع أو دفع الضر ومن يتأمل القرآن الكريم يرى أن آياته الكريمة كثيراً ما تعبر عن التوحيد بإخلاص الدعاء، لله وتعبر عن الشرك بدعاء غيره مثل قوله تعالى: [قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً] (سورة الجن، آية 20) وقوله: [فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ] (سورة العنكبوت، آية 65) وقوله: [وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ] (سورة غافر، آية 60) – وقد فسر المفسرون قوله: [عِبَادَتِي] في الآية الكريمة بدعائي – وقوله: [قل ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا]

(سورة الإسراء، آية 56 - 57) – والمقصود بالذين يدعون من دون الله كما ذكر المفسرون: المقربون عند الله مثل الملائكة والمسيح وعزير الذين يدعوهم المشركين – قولة: [وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ] (سورة يونس, آية 106 - 107)

وقوله: [قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ] (سورة الزمر, آية 38).

وفي الحديث الشريف " الدعاء هو العبادة " (أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وصححه) وفي رواية " الدعاء مخ العبادة " (أخرجه الترمذي وقال: غريب).

وعلاقة الدعاء بالتوحيد والشرك تظهر في أن الإنسان حينما يدعو الله لجلب نفع أو دفع ضر فلأنه يعلم أن الله يسمعه ويعلم حاله وأنه قادر على إجابة دعائه، وأن الله في الوقت نفسه يسمع دعاء غيره ويعلم حاله مهما تعدد الداعون واختلفت لغاتهم وتنوعت حاجاتهم. فإذا صرفها الإنسان لغير الله كما يفعل النصارى حينما يدعون القديسين أو مريم عليها السلام، أو كما يفعله جهال المسلمين في دعائهم لأصحاب القبور وطلبهم منهم النفع ودفع الضرر فإنهم في هذا الحالة يفعلون ذلك باعتقاد أن المدعو يسمع دعاءهم ويعلم أحوالهم ويطلع على ما في صدورهم؛ كما يسمع دعاء الآخرين ويعلم أحوالهم ويطلع على ما في صدورهم، وكما يسمع دعاء الآخرين ويعلم أحوالهم مهما تعددوا ومهما اختلفت لغاتهم وتنوعت حاجاتهم وتباعدت أماكنهم. والنصارى وجهال المسلمين بهذا الاعتقاد والفعل يصرفون ما هو من خصائص الله إلى غيره من المخلوقين ويصرفون نوعاً من عبادة الخالق إلى المخلوق وكل ذلك كما هو واضح مناف لتوحيد الله. ولا ينفع النصارى وجهال المسلمين اعتذارهم بأنهم لا يعتقدون أن مريم عليها السلام أو القديسين أو الأولياء والصالحين قادرون على جلب النفع أو دفع الضرر باستقلال، وإنما يعتقدون أنهم وسائط بينهم وبين الله؛ لأن الله رد هذا العذر بصريح النص بقوله: [وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى]

(سورة الزمر، آية 3). وقولة: [وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ] (سورة يونس، آية 18). وقد أخبر الله سبحانه أن هؤلاء المدعوين هم أنفسهم يطلبون القرب من الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه قال تعالى: [قل ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلا أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا] (سورة الإسراء، آية 56 - 57).

إن الله عز وجل أخبرنا في كتابه عن أهل الجاهلية من النصارى ومشركي العرب الذين كانوا يتوسلون بمريم والقديسين والملائكة والأصنام ويزعمون أنهم إنما يفعلون ذلك ليقربوهم إلى الله زلفى وأنهم شفعاؤهم عند الله فهؤلاء يدعونهم في حالة الرخاء، وأما في حالة الشدة فيخلصون الدعاء لله ولا يشركون معه غيره من المخلوقين في الدعاء قال تعالى: [فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا

اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ] (سورة العنكبوت، آية 65)، وقال سبحانه: [حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ] (سورة يونس, آية 22) مما يدمي القلب أسفاً أن نرى جهال المسلمين يدعون أصحاب القبور والغائبين من الأولياء والصالحين في الشدة والرخاء.

وأغرب من ذلك أن الله أخبرنا عن المشركين في الجاهلية بأنهم يعترفون بأن الله وحده هو من بيده الرزق والضر والنفع وتصريف الأمور وتدبيرها

قال تعالى: [قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ] (سورة يونس، آية 31).

ومع ذلك نرى من جهال المسلمين من ينسب إلى أصحاب القبور وإلى الصالحين من المخلوقين ومن يسمونهم الأبدال والأقطاب الضر والنفع والرزق وقضاء الحاجات وتدبير الأمور والتصرف في الكون، وعلم الغيب، بل نجد مثل هذه العقائد الضالة في كتب بعض المنتسبين إلى العلم ولا سيما في الكتب المؤلفة في كرامات الأولياء

مع أن أفضل خلق الله سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم أمره ربه بقوله: [قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً] (سورة الجن، آية 21). وقوله: [قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ] (سورة الأعراف، آية 188). وقوله: [قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ] (سورة الأنعام, آية 50)، وإنما أوقع جهال المسلمين فيها وقعوا فيه غفلة كثير من المنتسبين للعلم، وتقليد الآباء والأجداد واستحكام العادات والتقاليد، وإحسان الظن بمؤلفي الكتب والتسليم بما فيها دون عرضها على نصوص الوحي، وهذا إذا عذر فيه عوام المسلمين بالجهل، فما عذر المنتسبين للعلم، ومما يدل على تحكم العادات وأنه إذا كثر المساس قل الإحساس أن نرى قلة من الحركات الإسلامية – مع ظهور العلم وانتشار الوعي – من يعنى بهذا الأمر مع أنه أساس الإسلام وركنه الأول. فلا حول ولا قوة الا بالله.

ومن هنا تتضح الحكمة من حرص النبي صلى الله عليه وسلم وإلحاحه بالوصية بعدم البناء على القبور والأمر بتسويتها وعدم اتخاذها مساجد أي: أماكن للعبادة؛ لأن كل ذلك هو ما جر إلى فتنة دعاء المقبورين والوقوع فيما ينافي أخص خصائص توحيد الله وإخلاص العبادة له. والله المستعان!

بعض صور الشرك

إن صور الشرك متعددة وإن الناصح ليهرب منه أشد الهرب وينأ بنفسه عن كل طرائقه، وإن من المؤسف جداً أن كثيراً من المسلمين لم يعد عندهم الوعي التام بما هو شرك وما ليس كذلك فصاروا يقعون في الشرك من حيث لا يشعرون وإن من صور الشرك ما يلي: -

1- الذبح للأولياء والصالحين من الأحياء والأموات.
2- النذر لهم.
3- دعاؤهم بتفريج الكرب وقضاء الحاجات.
4- اتخاذهم وسائط ووسائل بين العبد وربه.
5- اتخاذ قبورهم أعياداً ومزارات تعظيم.
6- الرجاء والخوف منهم.

طال الكلام في هذا الفصل والسبب

أولاً: خطورة الشرك، من حيث إنه يهدم التوحيد أساس الإسلام ويحبط عمل مسلم عند الله، الأمر الذي يوجب الحذر من كل ذريعة إليه، ويدل التاريخ على أن أبلغ ذريعة توصل إلى الشرك الغلو في الصالحين واتخاذ قبورهم أماكن للعبادة، ومواسم وأعياداً، وتعظيمها بتشييدها والبناء عليها.

ثانياً: حرص النبي صلى الله عليه وسلم البالغ على التحذير من هذه الذريعة إذ شدد النهي من اتخاذ القبور مكاناً للعبادة في آخر حياته، ثم كرر ذلك قبل أن يموت بخمس ليال، ثم في آخر لحظات حياته صلى الله عليه وسلم، وعني صلى الله عليه وسلم بالنهي من تجصيصها والبناء عليها، وأمر بهدم ما أشرف منها.

ثالثاً: شيوع هذا البلاء في أرض الإسلام حتى لم يبق من البلدان العالم الإسلامي بلد لم تدخله هذه الفتنة إلا النادر.

رابعاً: ضعف اهتمام كثير من المصلحين وغفلتهم عن هذا الأمر الذي كان من المفترض أن يكون من أول أولوياتهم وعلى رأس اهتمامهم.

ومن أعظم أسباب شيوع هذا الأمر في المسلمين وغلبته على حياتهم بدأً من سلوك الدولة الفاطمية في مصر، ما هو معروف من طبيعة الأشياء أن شيوع الأمر أساس لقوته، وتكون قوته بعد ذلك سبباً لزيادة شيوعه وغلبته، وهكذا تتكون الحلقة الخبيثة التي تجعل المنكر معروفاً والمعروف منكراً، وترتب على ذلك ضياع أصوات المصلحين الذين ما فتئوا بين وقت وآخر ومن مكان لمكان يحذرون من هذا البلاء كما حذر نبيهم ويوضحون تمام الإيضاح عن عظيم خطره والله المستعان.

تنبيه آخر

إن وصف عمل ما بالشرك أو الكفر لا يعني بالضرورة الحكم على مرتكبه بالخروج عن الإسلام أو معاملته معاملة المشركين والكفار، فمن المعروف أن من يرتكب مثل هذه الأعمال الشركية من جهال المسلمين لو خير بين كفر والقتل لا ختار في الأغلب القتل على الكفر؛ بل إن لدى كثير من أمثال هؤلاء من محبة الله ورسوله والإيمان بأن القرآن حق ما لدى غيرهم من المسلمين.

وإنما ارتكب من ذلك ما ارتكب جهلاً بحكمه عدم معرفته أنه ينافي التوحيد فالواجب تبصير الجاهل وتنبيه الغافل.

والخطر الحقيقي على من يعرف ذلك ويعرف ما ورد فيه من نصوص الوحيين ثم يقره، أو لا يبين حكمة للناس وإن الوعي بهذه الآية الكريمة: [إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ] (سورة البقرة، آية 159 - 160). كفيل بأن ترتعد له الفرائض، وتفرق منه القلوب، ويحمل الناصح لنفسه، العالم بأن نهايته الموت والبعث والحساب أن يتقي أن يكون ممكن شملهم هذا الوعيد، والله المستعان

الوصية الثانية عشر

التحذير من البدع والمحدثات

أخرج أحمد وأبو داود والترمذي عن العرباض بن سارية قال صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا، قال: "أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن أمر عليكم عبد حبشي فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة من الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة (وقال الترمذي: حديث حسن صحيح)

تمهيد

إن الحفاظ على قواعد الشرع الحنيف من كل وافد غريب مهمة تقع على عاتق كل أفراد هذه الأمة لا سيما علماؤها وأهل الرأي والحل والعقد فيها؛ وذلك لأجل الحفاظ على معالم العقيدة الصحيحة التي تشكل حجر الزاوية في دين الإسلام.

وإن الشريعة الإسلامية باستنادها إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم تمتلك مقومات الحصانة والبقاء والاستمرار، ولم يرحل خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم إلا وقد اكتملت معالم الدين الإسلامي الحنيف بأبعادها المختلفة [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً]

(سورة المائدة، آية 3)، وبعد تمام الدين وإكماله لا يكون قابلاً للزيادة أو النقصان أو التعديل ومن يحاول ذلك مبتدع ومفترٍ ومقدمٌ بين يدي الله ورسوله: [وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا] (سورة هود، آية 18)

[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ] (سورة الحجرات، آية 1).

إن الإحداث في الدين معول هدام في صرح الإسلام، وهو من أخطر ما يهدد وحدة الأمة بالفرقة والاختلاف، ثم بالعداوة والبغضاء والصراع والاحتراب، ومن هنا أكد الحبيب المصطفى التوصية باجتناب البدعة والإحداث في الدين. وتعد البدعة من كبائر الذنوب، وهي ضلالة كما وصفها الحبيب المصطفى: "وكل ضلالة في النار" (أخرجه النسائي وابن خزيمة في صحيحه).

تعريف البدعة

لا أحد من المسلمين يقول: إن البدعة مقبولة في الشرع أو أنها مستحسنة من الشارع، ومع ذلك تنشر البدع بين المسلمين، والسبب في ذلك أن الناس ينكرون من البدع ما هو موجود عند غيرهم، أما ما يشيع عندهم، وقد وجدوا عليه أباءهم وقومهم قبل يظنون أنه بدعة، وهذا يرجع في كثير من الأحيان إلى عدم الاتفاق على مفهوم واضح للبدعة، ولعل أفضل تعريف للبدعة هو تعريف الشاطبي حيث قال: " البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة، يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية أي: التقرب إلى الله.

وربما كان أوضح ضابط للبدعة: أنه كل عمل يتقرب به الإنسان إلى الله ولم يعلمه النبي صلى الله عليه وسلم أو صحابته الكرام مع وجود الموجب له في وقت النبي صلى الله عليه وسلم ووقت أصحابه، وانتفاء المانع منه في وقتهم

أسباب نشوء البدعة

أولاً: توهم أن كل مبالغة في التعبد لله تعالى قربة:

1- روى جابر بن عبدالله: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في سفر فرأى رجلاً عليه زحام قد ظلُل عليه، فقال صلى الله عليه وسلم: " ما هذا؟ " قالوا: صائم، قال صلى الله عليه وآله وسلم: "ليس من البر الصيام في السفر" (متفق عليه)

2- وروى مالك في الموطأ: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأي رجلاً قائماً في الشمس فقال " ما بال هذا "؟ قالوا: نذر أن لا يتكلم ولا يستضل من الشمس، ولا يجلس، ويصوم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مروه فليتكلم وليستظل وليجلس وليتم صيامه "

3- وروى البخاري عن قيس بن أبي حازم: دخل أبو بكر على امرأة، فرآها لا تكلم فقال: ما لها لا تكلم؟: قالوا: حجت مُصمتة، قال لها: " تكلمي؛ فإن هذا لا يحل، هذا من عمل الجاهلية فتكلمت ".

4- وروى عن الزبير بن بكار أنه قال: " سمعت مالك بن أنس وقد أتاه رجل فقال: يا أبا عبدالله من أين أحرم؟ قال: من ذي الحليفة، من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فإني أريد أن احرم من المسجد من عند القبر، قال: لا تفعل فإني أخشى عليك الفتنة. فقال: وأي فتنة هذه؟ إنما هي أميال أزيدها! قال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ إني سمعت الله يقول: [فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] (سورة النور، آية 63).

5- آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا، فقال: كل. قال: فإني صائم. قال: ما أنا بأكل حتى تأكل. قال: فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم. فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم. فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصلينا فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال النبي صلى الله عليه وسلم: صدق سلمان " (أخرجه البخاري)

ثانياً: اتَّباع الهوى:

إن رغبة الظهور تؤثر تأثيراً قوياً في حياة الأنسان، وإذا ما انفلتت هذه الرغبة من القيود الشرعية، وتُركت تنمو وتتصاعد حتى تسيطر على مشاعر الإنسان وتتدخل في رسم سلوكه العام فإنها في نهاية المطاف ستدفع بصاحبها إلى الضلال عن سبيل الله باختراع البدعة وممارستها، قال تعالى: [وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ] (سورة القصص، آية 50). وقال عزَّ من قائل: [وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ] (سورة ص، آية 26).

ثالثاً: التسليم لغير المعصوم

أن من أسباب نشوء البدع: التسليم لغير المعصوم، وجعل أقواله أو اعماله دليلاً على الأحكام؛ لأن غير المعصوم يصيب ويخطئ، وإذا كان ممن لا يتقى الله فقد يكذب فيكون التسليم لقوله واتّباعه سبباً للانحراف والابتداع والكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

إن النبي الأكرم محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، وكتابة القرآن الكريم خاتم الكتب، وشريعته خاتمة الشرائع، فلا حكم إلا ما حكم به ولا سنُة إلّا ما سنهُ، والخروج عن هذا الإطار يمهد الطريق للمبتدعين.

رابعاً: الاستناد إلى من لم يصح من الأحاديث

ذكر أهل العلم أن عمدة أهل البدع الأحاديث الضعيفة؛ بل والموضوعة، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "من كذب علي متعمداً فليتبؤ مقعده من النار" (متفق عليه).

وقال: "من حدث عني حديثاً يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين " (اخرجه مسلم). وبقدر ما يقع التساهل في هذا الأمر بقدر ما يبتعد الواحد عن السنة ويقع في براثن البدعة.

تقسيم البدعة إلى بدعة حسنة وسيئة

يرد في كلام بعض العلماء تقسيم البدعة إلى بدعة حسنة وبدعة سيئة، والحق أنه ليس مع من قَسم البدعة إلى بدعة حسنة وبدعة سيئة دليل؛ لأن البدع كلها سيئة؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: " كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة بالنار " رواه النسائي من حديث جابر بن عبدالله ورواه الإمام مسلم في " صحيحه" بدون ذكر: " وكل ضلالة في النار" من حديث جابر بن عبدالله.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: " من سنَّ في الإسلام سنة حسنةً (اخرجه مسلم). فالمراد به: من فعل فعلاً مشروعاً فاقتدى به غيره ففعل مثل فعله؛ لأنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك بمناسبة ما فعله أحد الصحابة من مجيئه بالصدقة في مجاعة وقعت، حتى اقتدى به الناس وتتابعوا في تقديم الصدقات.

وأما قول عمر رضي الله عنه: "نعْمت البدعة هذه " (رواه البخاري)؛ فالمراد بلفظ البدعة هنا البدعة اللغوية لا البدعة الاصطلاحية؛ لأن عمر قال ذلك بمناسبة جمعه الناس على إمام واحد في صلاة التراويح، وصلاة التراويح جماعة قد شرعها الرسول صلى الله عليه وسلم؛ حيث صلاها بأصحابه ليالي، ثم تخلَّف عنهم خشية أن تفرض عليهم، وبقي الناس يصلونها فرادى وجماعات متفرقة، فجمعهم عمر على إمام واحد كما كان على عهد النبي صلى الله عليه سلم في تلك الليالي التي صلاَّها بهم، فأحيا عمر تلك السنة، فيكون قد أعاد شيئاً قد انقطع لسببٍ، وهو خوف النبي صلى الله عليه وسلم أن تفرض على الناس، فيعتبر فعله هذا بدعة بالمعنى اللغوي لا المعنى الشرعي؛ لأن البدعة بالمعنى الشرعي محرمة، لا يمكن لعمر وهو الوقَّاف عند حدود الله أن يفعلها، وهو يعلم تحذير النبي صلى الله عليه وسلم من البدع.

وليس من البدعة بالمعنى الشرعي الوسائل الموصلة لأمر مشروع مثل بناء المدارس وطبع الكتب؛ لأن الوسائل لها حكم المقاصد، والوسائل للمقاصد تتغير بتغير الظروف والأحوال والأماكن، ومبتكر الوسيلة الموصلة لمقصد شرعي يدخل في معنى الحديث الشريف " من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة "

وأبعد من القول بتقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة قول من قسم البدعة إلى خمسة أقسام: بدعة واجبة، وبدعة مندوبة، وبدعة محرمة، وبدعة مكروهة، وبدعة مباحة. إلا إذا قصد بلفض البدعة البدعة بالمعنى اللغوي لا المعنى الشرعي.

ولعل مما يعينك على التمييز بين البدعة بالمعنى اللغوي والبدعة بالمعنى الشرعي أن تسأل نفسك عندما يواجهك أمر مبتكر يراد بفعله قصد القربة، هل ثبت فعله الرسول صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة الكرام؟ ثم هل كان موجه قائماً في وقتهم؟ وهل كان المانع منه غير موجود؟ فإذا كان لم يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أحد من صحابته مع أن موجبه موجود والمانع منه غير موجود فإنه بدعة بالمعنى الشرعي.

مثال ذلك لو اختار أحد الأشخاص أن يضاف لفض (وأعلى) إلى لفض (الله أكبر) في الأذان، وقال: إن قصدي هو زيادة التعظيم والتمجيد لله، فهنا نقول: إن هذا الأمر لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الموجب له وهو التعظيم والتمجيدَ للهِ قائماً، والمانع منه منتف، فنعرف بذلك أنه بدعة وضلالة.

مثال آخر: لو اعتاد نُفَر من الناس صلاة الضحى جماعة وقالوا: قصدنا أن يشجع بعضنا بعضاً على صلاة الضحى، فهنا أيضا نقول: إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصَّل الضحى بأصحابه جماعة على سبيل الاعتياد، مع أن الموجب وهو حمل النفوس على أداء سنة صلاة الضحى قائم، والمانع منه منتف. فعرفنا بذلك أن اعتياد صلاة الضحى جماعة، بدعة وتسمى مثل هذه البدعة بدعة إضافية؛ للتفريق بينها بين البدعة الأصلية التي هي عمل من أعمال العبادة لم يشرع أصلاً.

الوصية الثالثة عشر

التحذير من فتنة التهاريج والاقتتال

أخرج البخاري ومسلم عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له في حجة الوداع: "استنصت الناس، فقال: لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض "

تمهيد

قد أخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم عن آخر الزمان وما يكون فيه من الفتن ولإثم والعدوان، وأخبرنا عليه الصلاة والسلام عن الفوضى وسفك الدماء والقتل؛ فقال: " لا تقوم الساعة حتى يُقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج وهو القتلُ (متفق عليه)، وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج قيل: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: " القتلُ القتلُ (متفق عليه)، وقال صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده ليأتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قتلَ، ولا يدري المقتول على أي شيء قُتلَ فقيل: كيف يكون ذلك؟ قال: الهرْج " (أخرجه مسلم).

وقتل الآدمي من أكبر الكبائر بعد الكفر فلا يباح قتله إلا لمصلحة راجحة وهو أن يدفع بقتله شراً أعظم من قتلة فإذا لم يكن هذا لم يجز قتله.

قال تعالى: [مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ] (سورة المائدة، آية 32).

فمن هذه الآية الكريمة أخذ العلماء قاعدة: أن الأصل عدم إتلاف النفس، قال ابن تيمية رحمه الله: " الأصل أن الله حَرَّم قَتل النفس إلا بحقها، قال تعالى: [مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ] (سورة المائدة، آية 32). فلم يبح القتل إلا قوداً، أو لفساد البغاة وسعيهم في الأرض بالفساد مثل فتنة المسلم عن دينه وقطع الطريق "انتهى من قاعدة مختصرة في قتال الكفار ومهادنتهم لابن تيمية (ص 203 204).

وقال ابن دقيق العيد رحمه الله في تعليل منع قتل غير المقاتلين من الكفار: " ولعل سرَّ هذا الحكم أن الأصل عدم إتلاف النفس وإنما أبيح منه ما يقضيه دفع المفسدة، ومن لا يقاتل ولا يتأهل للقتال في العادة ليس في إحداث الضرر كالمقاتلين فرجع إلى الأصل فيهم وهو المنع ". انتهى من إحكام والاحكام.

وتدل نصوص القرآن على أن من ابلغ الشرور والمكروهات في علاقة الإنسان بغيره: سفك الدم والفساد في الأرض وإرادة العلو فيها، وقد أكد القرآن هذا المعنى بتكراره في أكثر من مائة وعشرين موضعاً.

ووردت النصوص في القرآن دالة على أن سفك الدم حينما شرع في القصاص والحدود والجهاد شرع لمقاومة تلك الشرور الثلاثة وكافحتها كما تضمنت ذلك النصوص في قول تعالى: [وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ] (سورة البقرة، آية 179). وقوله: [إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا] (سورة المائدة، آية 33) وقوله: [وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ] (سورة البقرة, آية 251)، أما حينما يكون الموضوع قتل المسلم فإن الكتاب العزيز وكتب السنة طافحان بالنصوص التي تشدد وتؤكد في التحذير منه، قال تعالى: [وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيما] (سورة النساء، آية 93)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. فقلت: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه " (أخرجه البخاري)

وقال: " اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: يا رسول الله وما هن؟ الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات"(أخرجه البخاري)

وقال صلى الله عليه وسلم: " لا يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا " (أخرجه البخاري)

ولذا كانت بدعة الخروج على الأئمة من أعظم ما رزئ به الإسلام، ومع أنه حدثت في الإسلام طوال تاريخه بدع شنيعة إلا أن البدعة الوحيدة التي استحقت أن ترد بالتحذير منها والتغليظ فيها الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم هي بدعة الخوارج الذين خرجوا على الأمة يكفرون المسلمين ويقتلونهم.

جاء في الحديث الشريف " مَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، لا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا، وَلا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّي ولَيْسَ مِنْه " (أخرجه البخاري)

واقع مرير

إنه مما يدمي القلب أن نرى في عصرنا الحاضر استخفاف بعض المسلمين بالدماء كما نشاهد في الصومال والسودان والعراق وباكستان وأفغانستان وغيرها من بلاد المسلمين حيث ينصرف المسلم عن قتال عدوه الكافر إلى قتل وقتال إخوانه المسلمين.

حتى ليخشى أن يكون ما يجرى في بلاد المسلمين الآن تأويلاً للأحاديث الشريفة مثل قوله صلى الله عليه وسلم: " لا تقوم الساعة حتى تظهر الفتن ويكثر الهرج وهو القتل القتل (متفق عليه)، وقوله صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده ليأتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قتل ولا يدري المقتول على أي شيء قتل فقيل: كيف يكون ذلك قال: الهرج " (أخرجه المسلم)

فالواجب على العلماء والدعاة أن يبصروا العامة بهذا الخطر العظيم وأن يولوه من الاهتمام مثل ما أولاه نبيهم الشفيق بأمته العزيز عليه ما يعنتهم والحريص عليهم صلى الله عليه وسلم.

الشـرع يحـمـي الأرواح

إن الله امتن على المؤمنين بأن جعل لهم هذا الإسلام الذي فيه الرعاية والحماية والأمان، ذكر المشركين بنعمته عليهم في الأمن بمكة: [أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ] (سورة القصص، آية 57). فهكذا كان الدين مسانداً ورافداً ومقيماً للأمن: [أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ] (سورة العنكبوت، آية 67)، [فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ] (سورة قريش، آية 3-4) وما يصيب الناس من مصيبةٍ فيها خوفُ فبما كسبت أيديهم؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى: [وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ] (النحل 112)

فبالأمن تستقيم المصالح، وباستتبابه والقضاء على المفسدين، والقضاء على الذين يروَعون الناس المصلحة العظيمة.

الحذر من كـيـد الأعـداء

لا شك أن أعداءنا لا يريدون أن يكون للمسلمين أمنُ واستقرار في بلادهم، لا يريدون أن يكون هنالك مجال لالتقاط الأنفاس، وإقامة الشرع والدين، والدعوة إلى الله وحصول الاستقرار؛ وإنما فتناً متواصلةً واضطراباً دائماً وقالً مستمراً، فيعملون على إيجاد الفرص لافتراق المسلمين واختلافهم باستعمال السذج وأهل الأهواء منهم، أو انتهاز واستغلال تلك الفرص، وكل من تأمل التاريخ يرى واضحاً أن كل مشاكل المسلمين في دينهم ودنياهم كانت نتيجة تفرقهم واختلافهم ونزغ الشيطان بينهم وإيقاع وإخوانه من الإنس العداوة والبغضاء بين المسلمين، فالله والمستعان وحسبنا ونعم الوكيل.

الوصية الرابعة عشر

التحذير من الربا

1- أخرج مسلم عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه في حديثه الطويل في صفة حجة الوداع وفيه ذكر خطبته صلى الله عليه وسلم بنمرة يوم عرفة وفيها قوله صلى الله عليه وسلم: " وربا الجاهلية موضوع وأول رباً أضع ربانا ربا العباس بن عبدالمطلب؛ فإنه موضوع كله "

2- وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص رضي الله عنه أنه شهد حجة الوداع مع الرسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر خطبته وفيها: " ألا وإن كل رباً في الجاهلية موضوع لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون " (وقال الترمذي: حسن صحيح).

3- وأخرج الدارمي وأبو يعلى الموصلي عن أبي حُرَّة الرقاشي عن عمه قال: كنت آخذاً بزمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في أوسط أيام التشريق أذود الناس عنه فقال: " ألا إن كل ربا في الجاهلية موضوع، ألا وإن الله قضى أن أول رباً يوضع ربا عباس بن عبدالمطلب، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظُلمون " (وفي إسناده مقال)، ولو صح هذا الطريق كان إعلانه صلى الله عليه وسلم بردّ ربا الجاهلية وتحريمه، والبداءة في ذلك بأهل بيته، تكّرر في حجة الوداع مرتين: يوم عرفة، وأوسط أيام التشريق

تمهيد

أظهر صور الربا وأكثرها شيوعاً قديماً وحديثاً هو: إقراض المال إلى أجل في مقابل زيادةٍ نظير الأجل. وتسمى هذه الزيادة في تعبير المصارف العربية الربوية: خدمة الدين، أو الفائدة، كما يسمى القرض الربوي: القرض بفائدة، وذلك عند تعبير هذه المصاريف عن الربا باللغة العربية، أما عند ما يعَبّرون عنه بغير العربية مثل الإنجليزية فيسمون الزيادة باسمها الحقيقي (interest) أي: الربا.

حكم الربا

وهو محرم في الشرائع كلها قال تعالى: [فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً (160) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ] (سورة النساء، آية 160-161).

وفي القوانين الجاهلية كقانون حمورابي، وبعض قوانين الفراعنة المصريين، وحتى القوانين الحديثة العلمانية تحرم بعض أنواعه كما في القانون الفرنسي (1935)، (622) من القانون الجنائي الإيطالي.

ولم يزدد في شريعتنا إلا تحريماً فقد جاء القرآن من الوعيد لآكلي الربا ما لم يتوعد به غيرهم من العصاة

قال تعالى: [الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ] (سورة البقرة، آية 275).

بل أعلن الحرب عليهم فقال: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ*فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ] (سورة البقرة، آية 278-279)، ومحارب الله محروب مهزوم لا محالة.

وعدّه النبي صلى الله عليه وسلم من الكبائر المهلكات؛ فقال كما في حديث أبي هريرة: " اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: يا رسول الله وما هن؟ الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات" (أخرجه البخاري).

ولعن كل من ساهم فيه فقال كما في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه: " لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا ومؤكله، وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء " (متفق عليه)

خطورة الربا على الفرد المجتمع

إن الربا من أشد المعاصي ضرَراً على الفرد والمجتمع، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله "

(واخرجه الحاكم وصححه)، وهذا مصداق قول الله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ*فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْب مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ] (سورة البقرة، آية 278-279).

أما أضراره على الأفراد فليس أقلها محق بركة المعاش قال تعالى [يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ] (سورة البقرة، 276).

والوقوع في غائلة لعن النبي صلى الله عليه وسلم؛ فعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه: " لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا ومؤكله، وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء " (متفق عليه).

مفاسد الربا

إن الشارع الحكيم لم يكن ليحرم الربا هذا التحريم الشديد ويتوعد عليه هذا الوعيد العظيم إلا لأن له مفاسد كبيرة، وإن من المفاسد الكبيرة وهي مفاسد ظاهرة للعيان ما يلي:

1. حصول العداوة والبغضاء بين الناس، وهذا من أعظم ما جاءت الشريعة بمنعه وسدً كل ذرائعه.
2. سدٌ باب القرض الحسن؛ فإن الربا إذا ظهر في الناس منعوا القرض الحسن واضطر ذوو الحاجة إلى الربا، وإن من لطائف القرآن أنه يقرن الترهيب من الربا وبالترغيب في الصدقة، فبعد أربع عشرة آية في الترغيب في الصدقة في سورة البقرة تلاها مباشرة الترهيب عن الربا في سبع آيات، وبعد أن قال سبحانه [يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي] أعقبه مباشرة بقولة: [وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ]، وبعد قوله سبحانه في سورة آل عمران: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً] جاء قوله تعالى: [الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء] الآية في سورة الروم بعد قوله تعالى [وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ] الآية
3. التضييق على المعسرين، في المحاكم والسجون من معسرين أرهقتهم أقساط الربا فعجزوا عن سدادها فزُج بهم في السجون.

4. تنمية الأخلاق الدنيئة في متعاطي الربا فمتعاطي الربا تنمو فيه أخلاق خبيثة كالجشع والأنانية والقسوة والاستغلال والطمع قال تعالى [الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إلا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ]
5. تضخم المال عند طبقة من الناس على حساب الفقراء.

وبعد وجود الاقتصاد الكبير في هذا العصر توضحت آثار الربا المدمرة الاقتصادية والاجتماعية، ما لم يعد يخفي على أحد.

استحلال الربا وممارسته

ومع الأسف فإن كثيراً من المسلمين في الوقت الحاضر وقعوا في استحلال بعض المعاملات الربوية وممارستها، وكان أسباب ذلك غفلة بعض العلماء عن حقائق المعاملات، وعدم اعتبارهم لمقاصد تحريم الربا وقع من بعضهم إجازة ما تسميه البنوك قرضاً بفائدة، محتجين بأن القرض الذي يجُر نفعاً موضع خلاف، غافلين عن أن ما تسميه البنوك قرضاً ليس هو ما يسمى عند الفقهاء قرضاً؛ لأن القرض في الاصطلاح الشرع: عقد إرفاق ليس الأجل، والأجل عنصر فيه حين أن ما تسميه البنوك قرضاً بفائدة هو عقد معارضة، الأجل عنصر فيه فهو في الاصطلاح الفقهي: بيع ربوي، وليس أدلّ على ذلك من أن البنوك العربية عندما تعبر عن العملية بلغة غير العربية تسمية (ربا) كما شرع استخدام البنوك حديثاً الحيلة الربوية التي يسمونها: التورقُ. مستغلين غفلة الناس وعدم إدراكهم أن ما يسميه الفقهاء التورق ويجيزه بعضهم ويحرمه بعضهم، يختلف في طبيعة المعاملة عن الحيلة الربوية التي تسميها البنوك (تورّيقاً) وإن أشبهته في الشكل، [ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا] (سورة البقرة 275).

والفرق بن الحيلة الملعونة والمخرج الشرعي بالرغم من وجود الشبه بينهما، فرق دقيق ولكنه واضح بحمد لله، ويستند إلى ظهور القصد من طرفي المعاملة. فإذا ظهر من المعاملة أن قصدهما الربا، تبين أن المعاملة حيلة ملعونة وليست مخرجاً شرعياً.

فالمواطأة بين البنك الدائن والمدين على عناصر العملية يسفر عن نية المتعاملين ارتكاب الربا بصورة عقد شرعي، كما أن آثار الربا المدمرة اقتصادياً واجتماعياً وسلوكياً تتحقق بمثل هذه

المعاملة كما تتحقق تماماً بالربا الصريح أو ما تسيمه البنوك القرض بفائدة، فاعتبار النية، وملاحظة مقاصد التحريم تكشف بوضوح عن طبيعة الحيلة الملعونة التي تسميها البنوك في العصر الحالي (توَرقاً)

الوصية بتبليغ الدين

1- أخرج البخاري والمسلم عن أبي بكرة رضي الله عنه في ذكر خطبته صلى الله عليه وسلم يوم النحر بمنى وفيها: " ليبلّغ الشاهد الغائب فإنّ الشاهدَ عسى أن يبلغً من هو أوعى له منه "

2- وأخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم النحر فذكر الخطبة وفيها: "ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه فقال: " اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ قال ابن عباس: فو الذي نفسي بيده إنها الوصية إلى أمته فليبلغٌ الشاهد الغائب "

3- وأخرج ابن ماجه والحاكم وصححه عن جبير بن مطعم قال: قام الرسول الله صلى الله عليه وسلم بالخيف، فقال: " نَضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها فرب حامل فقه لا فقه له ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

تمهيد

إن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء بالهدى والنور فأضاءت به الدنيا، وإن من بشائره صلى الله عليه وسلم دخول هذا النور كل بيت حتى لا يدع بيت مدر ولا وبر إلا دخله، ومن أهم الوسائل الموصلة لذلك اضطلاع المسلمين بمهمة تبليغ هذا النور إلى العالم وتبشيرهم به

ولهذا نراه صلى الله عليه وسلم يؤكد على هذه القضية في أعظم المشاهد وأكبر المجامع فيقول لأصحابه: ليبلغ الشاهد – يعني: أصحابه – الغائب – يعني: من وراءهم – وقد كان صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه: " تسمعون ويسمع منكم، ويسمع ممن يسمع منكم " (أخرجه ابن حبان والحاكم)

وهكذا دواليك حتى يعم الخير ويشع النور فلا يبقى على وجه البسيطة رجل وامرأه إلا أصابه هذا الخير ووصله هذا النور.

مفهوم التبليغ

إن الخطأ في فهم مقصود الشارع بهذه الوصية أوقع كثيراً من المسلمين في التقصير في التبليغ مما نشأ عنه تأخير هذا النور أن يصل إلى أكبر عدد ممكن من العالم، إن التبليغ في مفهوم الشريعة ليس هو أن يكون الإنسان عالماً مفتياً بحيث لا يخفى عليه جمهور مسائل الشريعة حتى يكون مؤهلاً لتبيلغ الدعوة، لا ليس الأمر كذلك، واستمع إلى حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " نضّر الله امراءاً سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى مو هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه " (أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان). فقد أشار الحديث إلى أن المبَلغ ربما له يكن صاحب فقه أصلاً.

وتأمل قصص أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تجد الرجل منهم يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيسلم ثم ما ينشب أن يرجع إلى قومه مبلغا مبشراً بهذا النور الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ولو كان تبليغ دعوة الإسلام والتبشير بها حكراً على الراسخين في العلم ما اضطلع بها أولئك الأصحاب حديثو العهد بالإسلام.

شروط مبلغُ الدعوة

من خلال حديث زيد بن ثابت السابق يمكن أن نستنتج شرطين فيمن يجب عليه تبلّيغ الدعوة أو القيام بها:

الشرط الأول: حفظ ما ينقله من الشرع إلى غيره حتى لا يقع في غائلة الكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، لا شك أن المقصود هنا عين القضية التي يقوم بتبليغها لا سائر الشريعة.

الشرط الثاني: الحرص على إيصال ما حفظه من الشرع إلى غيره وتبليغه له امتثالاً لأمره صلى الله عليه وسلم بقوله: " بلّغوا عني ولو آية (أخرجه البخاري)، ورجاء الدخول في دعوته صلى الله

عليه وسلم: " نضّر الله امراءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه " (أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان).